من موسوعة وصف مصر

(١)

كيف خرج اليهود من مصر القديمة

تأليف

دى بوا - إيميه

ترجمة

زهير الشايب



من موسوعة وصف مصر

(١)

كيف خرج اليهود من مصر القديمة

تأليف : دى بوا – إيميه   ترجمة : زهير الشايب

١٩٩١

«العنوان الأصلى للدراسة : مذكرة موجزة عن إقامة العبرانيين فى مصر وعن هروبهم إلى الصحراء (١) ، تأليف دى بوا – إيميه عضو المجمع العلمى الفرنسى، وعضو شعبة العلوم والفنون بمصر، وعضو أكاديمية العلوم فى تورينو، والفارس الحائز على وسام الشرف »

---

(١) قدمت هذه الدراسة إلى شعبة مصر فى أول اكتوبر عام ١٨١٠ باعتبارها مكملة لدراسة أخرى للمؤلف حول القبائل العربية فى صحراوات مصر، ثم سحبها المؤلف بعد ذلك ليدخل عليها بعض التعديلات، وأرسلها إلى اللجنة فى أكتوبر ١٨١٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ليس ثمة حاجة إلى الحديث عن أهمية وضرورة هذا السفر الضخم الذى خلفه علماء الحملة الفرنسية، فقد تحدث العمل عن نفسه منذ صدوره، ولا يزال ينطق بما يحويه من دراسات بالغة الأهمية لكل قارىء أو باحث مهتم بتاريخ مصر، لاسيما وأن من قدموا هذه الدراسات قد جمعوا بين الروح العلمية والمشاهدة العينية.

فقد قام هؤلاء العلماء برصد كل ما شاهدوه لدى المصريين فى مختلف نواحى الحياة، وقدموا لنا لوحة أمينة – بالكلمة والصورة – عن حياة مصر فى ذلك العصر وما سبقه من عصور.

غير أن هذه الدراسات جاءت مختلفة الأحجام، تتجاور – فى أصلها الفرنسي– فى نفس المجلد قصيرة وطويلة، دون أى نسق منهجى واضح.

وقد ركز والدى - رحمه الله - عمله على مجلدات الدولة الحديثة، واختط لنفسه طابعا منهجيا، حيث قام بتجميع ما بها من دراسات حسب الموضوع الرئيسى الذى تدور حوله. وامعانا فى هذا النهج قدم دراستين من الدولة القديمة، كانت الأولى هى المجلد السابع من الترجمة العربية، وبه تتم موسوعة الموسيقى والغناء عند المصريين، والثانية موضوع هذا الكتاب، وهى تتمم دراسة صاحبها - دى بوا ايميه - عن القبائل العربية فى صحراوات مصر.

وبصدور المجلد العاشر - قريبا إن شاء الله - يكون قد تم لنا اخراج دراسات الدولة الحديثة تقريبا، ويبقى بعد ذلك دراسات الدولة القديمة أمانة فى عنقى، استعين الله وحده على اخراجها حتى يتم ما أسماه والدى بالترجمة الكاملة لموسوعة وصف مصر.

ومن منطلق تحمل التبعة قمت بمراجعة وتنقيح المجلدات التى سبق أن صدرت، لتخرج فى ثوبها اللائق، وبينما أنا كذلك جال بخاطرى: أن هناك قطاعا كبيرا من الدارسين

يخصهم دراسة بعينها ولا يعنيهم سواها، وأن هناك من القراء من تستهويه قراءة موضوع دون الآخر، فلماذا إذن نلزم أولئك وهؤلاء باستحواذ مجلدات أو مجلد لا يعنيهم سوى جزء منه.

ولذلك تم اختيار بعض الدراسات القصيرة التي تفيد كثيرين من دارسينا وقرائنا الأعزاء، وسوف تصدر تباعا إن شاء الله.

وأود أن أنوه أن هذه الدراسات هي كما بالأصل تماما دون أدنى حذف أو اختصار.

والله ولي التوفيق ..

منى زهير الشايب

الفصل الأول

مقدمة

اشتهر المصريون، فى عهد بعض ملوكهم، بمهارتهم فى فنون القتال، كما حازوا شهرة أكبر من ذلك بكثير بفضل حكمة قوانينهم، واتساع معارفهم، فلقد ولدت غالبية العلوم والفنون بين أيديهم ؛ وحين قاموا - هم - بتحضير اليونان، فقد غدوا أساتذة لأوربا.

ولقد اختفت هذه الأمة الشهيرة، كما اختفت مئات الأمم غيرها، فى حين يظل يعيش حتى اليوم شعب كان عبدا للفراعنة، ومع أنه قد بات مشتتا فوق الكرة الأرضية كلها، خاضعا لكل صنوف الحكومات، فقد احتفظ بكل عاداته وشرائعه، ولغته وملامحه ؛ وفى الوقت الذى تجد أقوى الأمم فى أوربا نفسها غير واثقة من أصلها، وفى حين يجهل الفرنسى الذى انتزع النصر من فونتنوى وفينا وبرلين وموسكو وروما إن كانت الدماء التى تتدفق فى عروقه هى نفسها التى تتدفق فى عروق أعدائه، وفى حين لا يعرف أكان أجداده من الفرنج أو من الغاليين ، أكانوا يقطنون ضفاف

السين أوالتبر أو الدانوب ، فان أبسط يهودى يحوز ذلك الشئ، الذى قد يكون مدعاة فخار للمتحكمين فيه، أى أنه يمتلك أصلا ينتمى لجنس قديم ؛ إن بإمكانه أن يقول، سواء كان قد ولد فى بولونيا أو فى أسبانيا : لقد كان أجدادى يقطنون حقول سوريا وصحراوات مصر في وقت لم تكن قد وجدت فيه بعد روما ولا أثينا ولا اسبرطة ولا أى من تلك المدن التي تشكل مباهج العصور القديمة وأمجادها.

وتعود هذه الظاهرة السياسية إلى قوة تلك الشرائع والمؤسسات التى أقامها موسى ، فانه بعزلة شعبه هكذا، وبشكل تام، عن بقية البشر، قد جعل من تشتته أمرا سهلا، لكنه فى الوقت نفسه جعل فناءه كذلك مستحيلا ؛ إن اليهود – منتصرين – لم يستطيعوا (بفعل هذه الأنظمة) أن يجعلوا من قوتهم أقوى من قوى الأمم التى أخضعوها، أما عندما كانت تحيق بهم الهزيمة فلم يكن بمقدورهم أن يختلطوا بالمنتصرين.

وتعود غالبية النقائص التى تعاب عليهم اليوم إلى حالة الاذلال التى انتهوا إليها فى كل مكان ؛ وحيث إنه لا دور لهم فى إدارة شئون الدولة، كما أنه ليس بمقدورهم أن يتملكوا

الأراضى ولا أن يتمتعوا بحرية العمل الحقلى، تلك التى تربى الروح والوجدان، بل ولأنهم – فوق ذلك – يضطرون لأن يقيموا فى أحياء منفصلة فى داخل المدن، تغلق عليهم بواباتها كل مساء ، وأن يعيشوا فيها مكدسين بعضهم فوق بعضهم الآخر، وألا ينخرطوا فى أى فن شريف، فلم يعد يتبقى لهم من عمل يقومون به إلا أن يشتروا وأن يبيعوا ؛ أما الذهب ، ذلك الذى يمنحهم الوسائل لاذلال قاهريهم، الذهب الذى لا يزال يعطيهم بعض ضروب المتعة، فقد بات هو الهدف الوحيد لطموحهم، وليست هناك شهوة تستطيع أن تتلف الانسان فى جسده وروحه أكثر من هذه.

وقد يكون من غير المجدى أن نحاول أن نثبت أن عيوبهم هذه تعود إلى شرائعهم وتنظيماتهم؛ ولنتأمل للحظة المسيحيين الخاضعين لسيطرة الأتراك؛ فنفس الأسباب قد سربت إلى هؤلاء نفس المساوئ ؛ فالانسان، ولو كان حرا مليئا بالشجاعة، ربما يصبح، مهما تكن الدماء التى تتدفق فى عروقه، مختالا ورعديدا حين يصير عبدا مهانا.

وفى البلدان التى تحسن فيها الأفكار والفلسفات ،

والديانة السمحة من قدر اليهود، ينهض من بينهم – هناك – رجال فضلاء وأدباء متميزون : ولقد رأينا فى أيامنا هذه اسرائيليين يقاتلون بعظمة تحت راية فرنسا.

اذن فعلينا ألا نحط من قدر أمة لا تحتاج، كى تصبح جديرة بالاحترام ، إلا لأن تحترم ؛ ودينها فضلا عن ذلك، هو قاعدة لديننا ؛ وعلينا ألا ننسى بصفة خاصة أنها أظهرت وسط المحن والآلام خاصية عظيمة، وأنه إذا كان العفو يعد شرفا للقوة فان المشاعر الرقيقة تكون شرفا للضعف، ونسوق مثالا على ذلك لا ينسى : لقد تجرأت أورشليم على قتال روما التى كان يرتعد أمامها أعتى ملوك الأرض؛ ثم أقام اليهود المهزومون، فى روما، بأيديهم المكبلة بالقيود الحديدية النصب الضخم وقوس تيتوس* Titus الذى تخلد نقوشه البارزة ذكرى سقوط المدينة المقدسة، حسن، لقد انقضت حتى اليوم سبعة عشر قرنا لم يمر خلالها مطلقا، من تحت هذا القوس الذى يكرس هزيمتهم، أحد من أحفادهم أولئك الذين ظلوا على

* امبراطور روما من ٧٩ إلى ٨١، وكان يطلق عليه اسم «ملاذ البشر»، وكان واحدا من الحكام الذين يسعون باخلاص شديد لتخفيف آلام شعبهم، وحين لم تواته الفرصة فى أحد الأيام لتقديم الخير صاح لقد ضاع يوم من حياتى، وفى عهده حدثت كارثة بركان فيزوف (عام ٧٩). (المترجم)

الدوام يحفظون ذكرى هذه الاهانة؛ وعن طريق منفذ ضيق شقوه لأنفسهم قريبا من هذا المبنى، كان اليهود يخرجون من الفورم* Forum قبل أن تؤدى عمليات الهدم والتنقيب التى تمت إلى فتح منافذ اتصال أخرى.

وذات يوم، كنت أتأمل فى هذه النقوش البارزة لهذا القوس، شمعدانا ذا سبعة شعب يزين المسيرة الظافرة للامبراطور، ومر بالقرب منى رجل عبرانى؛ تعرفت عليه من تلك الملامح التى لم يستطع أى طقس أن ينال منها، وأظننى قرأت فى نظراته التى القى بها على هذا المبنى، أبيات الشعر هذه ، التى وضعها شاعر كبير :

أى صهيون ، يا من يستحق الرثاء ؛
ماذا صنعت بمجدك ؟
فالعالم كله مأخوذ بعظمتك ؛
أما أنت : فلم تعد سوى غبار ؛
ولم يعد يبقى لنا من هذا المجد ،
إلا الذكريات الحزينة.

«استير ، الفصل الأول ، المشهد الثانى»

(*) ميدان عام فى روما حيث كان الشعب يتجمع ليناقش المسائل العامة. (المترجم)

وقلت لنفسى : كم من الأسئلة يمكن أن يلقيها هذا العبرانى على ، لو عرف أننى أقمت بمصر، وأننى أقمت خيمتى فى أرض جاسان، وعبرت البحر الأحمر سيرا على قدمي، وتجولت هنا وهناك، وسرت على غير هدى فى الصحراوات التى يحيط بها جبلا حوريب وسيناء !

ومع ذلك فأى انسان هو، مهما تكن معتقداته، ذلك الذى لن ينهمر بأسئلته على رحالة وطئت أقدامه أرض المعجزات والأمجاد هذه ؟ وهل هناك ملاحظة، ولتكن اصطناعية لأى مدى، يكون من شأنها أن تعود بنا إلى التقليب فى تاريخ الاسرائيليين .. دون أن يستمع إليها الإنسان بشغف ؟ وعلى هذا ، فمع يقينى بأن من شأن هذا أن يسترعى كل انتباه ، فسأحكى ما أملته على عملية التنقيب فى المواقع، حول إقامة العبرانيين فى أرض جاسان، وحول هروبهم إلى الصحراء ، وستتواثب الفائدة من وراء هذا الموضوع من ثنايا ما أحكيه.

عن الأسفار

أسفار موسى هى مجموعة الكتب الخمسة التى خطها موسى : سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد، وسفر التثنية.

وعلى الرغم من التناقضات التى يعتقد بعض النقاد أنهم قد وجدوها فى هذه الأسفار[٢] ، وعلى الرغم من اختلاف آرائهم حول زمن نشرها، فان الجميع مضطرون للاعتراف بأنها أقدم أثر مكتوب قد وصل الينا، كما أنهم لا يستطيعون، مهما تكن طبيعة آرائهم الدينية ، أن يرفضوا ما نجده فى هذه الكتب من فائدة كبيرة ترتبط بالتأريخ لشعب كان رعويا جوابا، ثم زراعيا، ثم جماعة من العبيد، ثم عاد مرة أخرى إلى حالة التجوال ليصبح بعد ذلك غازيا. ان تغييرات شبيهة

---

(٢) وفضلا عن ذلك فما هى غالبية هذه التناقضات التى تم اكتشافها بكثير من الطنطنة والتقعر ؟ بعض أخطاء من الناسخين، وعدة تفسيرات عارضة هى من اجتهاد المترجمين، ثم لا شئ أكثر ، أليس من الأسهل على سبيل المثال أن نتقبل فكرة أن رجلا ينسخ فى سوريا، فى غرب الأردن، نصوص الأسفار، قد أمكنه أن يضع عبارة فيما أمام هذا النهر فى موضع ما كان مذكورا فى الأصل على أنه إلى ما وراء ، وأن يشير إلى مقاطعات قديمة بأسمائها الحديثة ، وأن يذكر كذلك أسماء المدن التى أنشئت فيها بعد ذلك ؟

تستخدم عند التعريف بالجنس البشرى ، لأنها تشكل تاريخه، فى الوقت الذى تكون فيه تاريخا لشعب بعينه.

وفى الوقت نفسه ، فإننا عند تصدينا لمادة من هذا النوع، نحاذر أن نجرح أى رأى : فليقرأنا المسيحى واليهودى والمسلم والربانى دون أن يستشعر أى حرج أو إهانة؛ فلسنا هنا بصدد كتاب دينى، ولكننا ننظر إليه كوقائع تاريخية ، وجغرافية ، ومبادئ أخلاقية وروحية.

ومع ذلك فلماذا لا يتقبل أولئك الذين يرون أنهم ليسوا فى حاجة الا لعقيدتهم الدينية حتى أنهم يؤمنون ايمانا مطلقا بكل ما جاء فى الأسفار، لماذا لا يتقبلون عن طيب خاطر أن هناك بعض الوقائع (التى ترويها هذه الكتب) تعز على التصديق حين تستخدم طرق أخرى للتفكير ؟ أما هؤلاء الذين تدفعهم شكوكهم إلى تنحية كل عمل يكتشفون فيه بعضا من الخطأ ووضعه فى مرتبة الأساطير، وإلى النظر إلى وقائع بالغة البساطة باعتبارها أمورا مبهمة تكتنفها الشكوك لمجرد أنها تختلط فى نظرهم - بظواهر تنتمى إلى ماوراء الطبيعة - لماذا نراهم غاضبين حين يحاول بعض تبديد شئ من

شكوكهم ؟ وأما أولئك الذين يتعرفون على الله فى نظام الطبيعة الرائع فلماذا - هم بدورهم فى النهاية - يكابرون، عن غير حق، فيعتقدوا أن أسبابا روحية يمكنها أن تمارس تأثيرها على المادة، وأن الصلوات وأن الدموع تستطيع أن تغير شيئا ما من نواميس العالم الفيزيقى ؟ ولماذا يسعى هؤلاء الذين لا يمكنهم أن يتقبلوا أن يكون إله الكون شبيها بآلهة هوميروس ليصارع بدوره فى سبيل أشخاص زائلين أو أمور فانية، لالقاء الملامة على أبحاثنا، اذا ما سعت هذه الأبحاث إلى أن تجلو أمامهم تاريخ شعب فريد. وذلك بأن تقدم لهم بعضا من المعجزات التى ترفضها وتتأباها عقولهم باعتبارها شيئا من المصادفات السعيدة التى تجود بها ظواهر الطبيعة ؟ .

عن الرعاة الرحل

لم يجد الانسان، فى أكثر مناطق العالم بدائية يمكن أن تصل إليها قدماه، أشباهه منعزلين ، بشكل تام ، كل منهم عن الآخرين ؛ لكنه وجدهم متجمعين فى شكل قبائل تتفاوت

أحجامها؛ وإذا لم يكن لدينا فى هذا الصدد من زعم اجماعى مثل مالدى الرحالة ، فان فكرة التماثل قد تقودنا فى قضيتنا هذه إذا ما لاحظنا بعناية مايدور فى عالم الحيوان، وإذا ما قارنا التنظيم عند هذه الحيوانات بتنظيمنا، وعاداتنا الطبيعية وخصالنا الروحية والجسدية بمثيلاتها التى سوف نجدها عند الحيوان.

وتحمل هذه الاعتبارات نفسها، إذا ما أضيفت الى الشهادات التاريخية، على الظن بأن الإنسان كان صيادا وراعيا قبل ان يكون مزارعا، وأنه قد ساح فى الأرض قبل أن يكون لنفسه فيها مقار ثابتة ، وأن الناس فى كل مكان خصيب التربة، رقيق الطقس، صحى الهواء لدرجة كبيرة ، قد تزايدوا بسرعة هائلة، بعد أن مروا، من باب أولى ، من الحالتين الأوليين (الصيد والرعى) إلى الثالثة (الزراعة).

وفى هذه الحالة الجديدة خلق الانسان لنفسه، وقد أصبح أقل انشغالا بأمور غذائه والدفاع عن نفسه، احتياجات جديدة؛ اصطناعية بلا جدال، لكنه يلذ له أن يفى بها، فارتقى بالفنون، وزاد من عددها، واخترع العلوم؛ وعندما داخله الزهو

من تسامى معارفه بدأ يحتقر جهل المتوحشين (البدائيين)، ورد الأخير على الاحتقار باحتقار مماثل فأذاق الأول، لأكثر من مرة، ما تستطيعه القوة والشجاعة، وليدتا الاستقلال والفقر.

وبسبب هاتين الحالتين بالغتى التعارض تولدت أحقاد واضحة وحروب دائمة بين الشعوب الرعوية والشعوب المزارعة. وفوق ذلك، فلقد ساهم هذا الأمر نفسه فى تناقص الأولين لأنهم - فى حالة انتصارهم - يأخذون عادات المهزومين، ويرغمون - فى حالة هزيمتهم - على هجر أنماط حياتهم؛ وكان من الممكن أن يندثر هؤلاء الرعاة - على المدى الطويل - كلية لو لم تكن توجد على ظهر الأرض أقاليم تحول قحولتها، أو عدم صحيتها، دون تقدم أحوال سكانها، وحيث لا يستطيع الانسان أن يعيش إلا بمعونة القطعان، مع تغييره المستمر لمكانه، ولو لم توجد فى النهاية أماكن يجد فيها هذا الإنسان المأوى الأمين ضد جيوش الأمم بالغة القوة. أما هذه الأماكن، فلقد كانت، من بين مناطق أخرى، صحراوات مصر والجزيرة العربية وسوريا وبلاد ما بين النهرين التى سكنتها فيما مضى

قبائل العبرانيين، والتى لا تزال تقطنها حتى اليوم قبائل الرعاة الرحل.

ان الحالة الطبيعية لهذه البلاد لا تقدم جاذبية من أى نوع لقدوم غزوات أجنبية، كما أنها لاتدع فرصة للاختيار بين عدد كبير من الأنماط لا فى طرق المعيشة ولا فى العادات أو العلاقات السياسية لسكانها؛ اذن فعلى المرء أن يعثر هنا على عادات وتقاليد تاريخ ضارب فى القدم ؛ ان هذا فى الواقع هو ماحدث، اذ يبدو تاريخ الأسباط القدماء هو نفسه تاريخ شيوخ العرب فى أيامنا هذه[٣].

ابراهام

فى تلك الصحراوات القاحلة التى انتهينا من الحديث عنها تطلعت عشائر بأسرها إلى تلك الفكرة السامية التى

(٣) انظر دراستي عن القبائل العربية في صحراوات مصر، الدولة الحديثة، المجلد الأول، ص ٥٧٧ ، لكننى اكتفى بأن أضيف هنا إلى القائمة التى قدمتها عن بعض العادات الشائعة عند الشعبين، عادة تمزيق هؤلاء وأولئك لملابسهم واهالة التراب على وجوههم علامة على الحزن الشديد.

تتحدث عن وجود إله واحد[٤]. وهناك نشأت هذه الديانة التى انتشرت وسادت فى أكبر جزء من هذا العالم حاملة اسم اليهودية أو المسيحية أو الإسلام بحسب التعديلات التى تناولتها.

أما فى أقاليم اليونان الزاهية، على ضفاف نهرى روفيا وسيفيزا* فقد استطاع الانسان أن يعبد ، تحت أسماء فلورا وخيريس وبومونا، الطبيعة وقد جملتها الورود والمحاصيل والثمار، كما أمكنه - متمتعا بمباهج الفنون الجميلة - أن يتضرع إليها باسم منيرفا أو أبوللو. وأما فى قبرص المعطرة

(٤) تقدم لنا القبائل العربية التي أخذت على عاتقها، بعد أن تجمعت في شكل دولة تحمل اسم الوهابيين، أن تقوم وأن تنقي الدين الاسلامى (من الشوائب التى شابته)، برهاناً جديدا لما نقوله الآن؛ فلقد توصل هؤلاء الرجال الخشنون، فى بساطتهم هذه، إلى نفس نقطة المعتقد الديني الذى توصل إليه غالبية الرجال المتحضرين في أرقى أمم الأرض، أى الألوهية الخالصة؛ فالوهابيون لا يدعون لله شريكا قط، ولا يبتهلون إلا إليه؛ أما محمد وموسى والمسيح فليسوا بالنسبة لهم سوى حكماء (أنبياء)، أما الأمجاد الدينية التي يردها الناس إلى هؤلاء (وقد يعنى هنا التوسل بهم مثلا، أو تعظيمهم - المترجم) فليست فى نظر هؤلاء الوهابيين سوى وثنية.

* فى البلوبونيز. (المترجم).

وأيونا الرخوة، وسط أجواء تحمل النفس إلى الدعة فقد يعبد في قسمات وملامح أجمل النساء اللذة التي تجر إلى جنس يسحر الألباب، وحيث كان يحصل على مباهجه بمئات الطرق فقد كان يجد في كل بهجة الها محسنا مختلفا.

وتحت سماء أقل حظا أمكن أهالي تراقيا، كما استطاع الجرمانيون، الذين كانوا - هؤلاء وأولئك - قد تعودوا في صيدهم وحروبهم الدائمة على سفح دماء فرائسهم أو نظرائهم، كل يوم ، أن يجدوا مقر رب الحرب في هذه الغابات المعتمة التي تبدو همهمة الريح فيها كما لو كانت صيحات شاكية تتوجع من الآلام.

لكن، أكان شعب رعوي ، يضرب في سهول فسيحة من الرمال، بمستطيع أن يعبد الأرض مع خواصه العديدة وأحداثه المتنوعة في حين كانت تبدو الأرض بالنسبة له شحيحة للغاية وأحادية الشكل ؟ أكان بوسعه، وهو يجهل ترف الفنون أن يؤله خالقيها (أي مظاهر الطبيعة التي تؤدي إلى نشأتها) ؟ وفي الوقت نفسه الذي نجده فيه انسانيا ورقيقا، يعيش على لبن قطعانه، أكان في مقدوره أن يعبد إله الحرب

شأنه شأن المتوحش الذى لايلجأ إلا لقوته عندما تجابهه مخاطر الأيام، والذى يتغذى على لحم ينبض (بالحياة) ويروى غلته بالدماء؟ كلا، وانما النجوم وحدها هى التى تبعث على اعجابه : فالشمس التى تحيي وتوقظ المخلوقات هى التى تعطى القوة لأجسامهم كما تنشط أفكارهم ؛ هكذا تأله القمر وتألهت النجوم التى تضىء ليالى الصحراء، تلك الليالى الممتعة للغاية بعد حرارة النهار الملتهبة، وديانة كهذه كانت أقرب بكثير من أية ديانة أخرى لكى تسمو بالإنسان حتى يدرك الكائن الأسمى.

وفى واقع الأمر، فكل شىء فى السماء لا نهائى، يشمله نظام يدعو إلى الاعجاب ويبدو بوضوح للوهلة الأولى؛ أما هنا على الأرض فكل شىء محدود، يبدو وكأنه متروك لقدر أعمى ، فالبحر ، والأرض ، والهواء ، والظواهر التى تصدر عنها والتى لا يمكن للمرء ان يتنبأ بها ؛ وكذلك ضروب الجمال فى الريف، وفنون المدن، والشهوات الانسانية فهذه كلها أمور محددة ومتميزة لحد يكون من العسير معه عليها أن تولد فكرة السبب الأوحد، محرك الكون : وعلى العكس من ذلك، فإن

مراقبة النجوم تكشف عن التشابه القائم بينها على أوسع نطاق، وسرعان ما تبدو حركتها المنتظمة التى تخلع النقاب عن مواضعها نتيجة لارادة عليا، ودائمة.

اذن فقد كانت الآلهة التى اصطنعها الانسان لنفسه حين ثبت عينيه على الأرض أما طيبة وأما شريرة ، تدعو إلى المحبة او تبعث على الأسى، لكنها كانت على الدوام متعددة كذلك كانت سلطتها محددة ، أما حين رفع الانسان بصره نحو السماء، فقد اهتدى إلى اله واحد، لا نهاية لقوته وحكمته : فكرة سامية، وهى حين تضع كل البشر على مسافة متساوية من الكائن الأسمى، فانما تجعل من العبد المكبل بالأغلال حرا، مالم تكن الخرافة والعبودية قد امتهنتا بعد ، وبالدرجة الكافية، روحه حتى ليرى فى أولئك الذين يزعمون لأنفسهم أنهم سادته ، صورة من الرب.

أما ابرام ، ابراهام أو ابراهيم ، كما شاء الناس أن يسموه، فيبدو أنه هو الذى بشر، بأكبر قدر من الحماسة عرفته العرب ، بوجود إله واحد ، ليجعل عبادته تحل محل

عبادة النجوم(٥). ولقد كان المجد الخالد هو جزاء هذا الصنيع الطيب، ؛ ففى حين لا تكاد تعرف اليوم، اللهم الا لاشخاص معدودين ، أسماء مثل أتيلا* وجنكيز خان ، وكل أولئك الملوك الذين ظنوا أنهم قد ملئوا العالم بأسمائهم، فان راعيا صحراويا بسيطا ظل موضع تقديس من كل شعوب الأرض برغم كل القرون التى انقضت منذ تحول جسده إلى رماد ؛ فالطفل الذى يبدأ فى تعلم القراءة يتأتيء بالفعل اسمه، كما أن المسيحى واليهودى والمسلم يطلقون على الاله الذى يعبدونه اسم **رب ابراهيم** ، صحيح أن بعض العلماء النابهين يعتقدون ان غالبية الشخصيات الشهيرة فى الأزمنة البطولية ؛

---

(٥) كانت بعض القبائل بالفعل تعبد «العلى» ومن بينها شعب شاليم (سفر التكوين، الاصحاح ١٤)، وان كان ابراهام قد أعطى روعة خاصة لهذه العقيدة، عندما خلصها من كل ماكان من شأنه أن يشوه بساطتها.

* اتيلا ملك الهون الذى انتصر فى عام ٤١٥ على أباطرة المشرق والمغرب ودمر بلاد الغال (وهى المنطقة المحيطة بجبال الألب وتشمل شمال ايطاليا والبلاد الواقعة بين جبال الألب والبرانس وبين المحيط ونهر الرين، وكانت تسكنها شعوب كثيرة مقاتلة) ولكنه لقى الهزيمة فى سهول قطالونيا عام ٤٥١ بالقرب من شالون ومات على ضفاف الدانوب عام ٤٥٣. (المترجم).

الألسيد والجازون* وحتى ابراهيم وموسى والمسيح نفسه هم كائنات مجازية ، لا يرون فى تاريخها إلا تاريخ الأجرام السماوية ، ومهما يكن حظ افتراضاتهم هذه من الحذق فليس بمقدورنا أن نقبلها لأنها تبدو لنا متعارضة مع مسيرة العقل الانسانى، ومع ما نلمسه نحن كل يوم. لقد كانت للإنسان أساطيره قبل أن تكون له علاقة بعلم الفلك ، بل أن ما حدث - فى معظم الأحيان - هو أن النجوم ومجموعات النجوم كانت تسمى ، ولا تزال، بأسماء تذكر بأحداث تمت على الأرض، وفى النهاية، فان الإنسان حين يؤله كائنات بسيطة فانية، ويغطى فعالها بقناع من الرمز، حين ينسب إليها أعمالا لايمكنها أن تتحقق إلا على يد الطبيعة ذاتها وتلك نتيجة للمصداقية الدينية (ما يؤدى إليه الدين من قابلية خاصة للتصديق أو الايمان) ، تلك التى تسهب أو تضخم من أفعال البشر الذين تجعل منهم آلهة أو أولياء أو أنبياء وتنسب إلى مقدرتهم أو إلى وساطتهم عددا كبيرا من الأحداث المتخيلة أو

* Les Alcides ، أحفاد هيرقل، و Les Jasons هم أبناء جازون ابن ايزون ملك يولكوس Iolcos ؛ وكان جازون قد قاد أبطال الاغريق (الارجوتوت) للحصول على جزات الذهب من كولشيد وهناك أحبته ميديا ابنة ملك كولشيد الساحرة وهربت معه وتزوجها، لكنه هجرها ليتزوج من خريوس ابنة سيزيف، وانتقمت ميديا لنفسها بان عملت على دمار سيزيف وخريوس وطفليها. (المترجم).

الحقيقية.

لقد اختلطت الخرافات بالتاريخ فى كل مكان، فلقد راقت الأعجوبة للبشر على الدوام، ولسوف تظل تغريهم إلى الأبد، ولدينا كل يوم ألوف الأمثلة على ذلك. فلنتعلم كيف ننحيها بحكمة عن كل رواية، ولكن لنحذر فى الوقت نفسه من أن نقع فى تطرف آخر، مقابل، بأن ننكر فى رعونة بالغة الوقائع التي تختلط بأحداث خارقة، وماذا نقول فى هذا الذى يخلص من رفضه أن يصدق أن راية الصليب قد ظهرت فى الأجواء عندما زحف قسطنطين ضد ماكزانس* ان هذين الحاكمين لم يوجدا على الإطلاق ؟ أما عن ابراهام، فان ما يحول بصفة خاصة دون أن ننظر إليه بإعتباره مخلوقا رمزيا يمكن أن يرمز حسب فكرة قديمة عن نشأة الكون إلى بعض خواص المادة أو بعض خصوصيات الذكاء الأسمى، هو أنه لم يحدث أن اتخذ منه أحد فى أى مكان على الاطلاق إلها أو واحدا من

* ماكزانس هو امبراطور روما من عام ٣٠٦ إلى ٣١٢ وقد غرق فى نهر التيبر بعد أن مني بالهزيمة عند أسوار روما علي يد قوات قسطنطين الأول امبراطور روما من ٣٠٦ إلى ٣٣٧؛ وأدى انتصار الأخير إلى اقتناعه بضرورة جعل المسيحية دينا رسميا للامبراطورية، ثم أصدر في عام ٣١٣ مراسيم ميلانو التى تنص على حرية العقيدة الدينية، ثم نقل عاصمته إلى بيزنطة (القسطنطينية). (المترجم).

سلالة اله، برغم أن زهو كثير من الشعوب كان شغوفا بذلك، وبرغم أن عبادة الأوثان التى انغمسوا فيها كانت تحبذ مثل هذه الفكرة؛ وأخيرا فان اسم ابراهام قد جذب إلى مكة، منذ زمان ضارب في القدم، شعوب الجزيرة العربية، فقبر محمد نفسه فى المدينة ليس بالنسبة للمسلمين أنفسهم سوى شيء ثانوى فى طقوس الحج بالمقارنة مع الكعبة، فهذا (المعبد)، فى رأى العرب، هو أول بيت رفع للناس لعبادة الاله الحق، وهم ينسبون بناءه إلى ابراهيم واسماعيل، ويبدو أن ديودور الصقلى كان على معرفة به عندما يذكر أنه "يوجد على شاطيء البحر الأحمر معبد شهير يقدسه كل العرب"(٦) وحين أبطل محمد عبادة النجوم، وأزال الأوثان(٧) التى أقامها الناس

(6) Biblioth. hist. lib III.

(٧) كان الحجر الأسود، وينتظمه اليوم جذار فى احدى زوايا الكعبة، هو الوثن الوحيد (كذا !) من أوثان الكعبة الذى حظى احترام محمد، وسبب ذلك بلا ريب هو أن هذا الحجر لم يكن يجسد أى شكل انسانى أو حيوانى، ومن المحتمل أن يكون هذا الحجر الخام أو غير المصقول كان مخصصا - قبل مجئ العقيدة الاسلامية - لعبادة الشمس، ومن المعروف أن الشمس كانت تعبد في سوريا على هذه الصورة، وأن روما قد شهدت فى عصر هليوجابال حجرا أسود بسيطا يتصدر آلهة ايطاليا واليونان التى كانت تتجسد فى أعظم أعمال النحت، فوق جبال بالاتان. وقد يكون من المثير أن نبحث عن الدافع الذى قد يكون وراء عبادة أروع النجوم وأكثرها بريقا ولمعانا فى أكثر الأشكال خشونة وأكثر الألوان قتامة؛ فلعل هذه الأحجار كانت نيازك سماوية، وبهذا يكون الناس قد تصوروا أن كرة ملتهبة تهبط من السماء تصحبها =

لها بين جدران الكعبة المقدسة، فقد احترم الأثر القديم الخاص بهذين الأبوين؛ كما كرس القرآن عملية الحج القديم إلى مكة تخليدا لاسميهما القديمين والمقدسين، ولعله قد تم كذلك بقصد سياسى يهدف إلى ربط الأمم التى ستدين للإسلام عن طريق هذه التجمعات المهيبة ؛ فجعل القرآن من الحج فريضة دينية على كل مسلم.

كذلك كان العبرانيون ينظرون لإبراهام باعتباره زعيما لجنسهم، وهو ما يتطابق مع شهادة العرب الذين يشكل

= ضجة مفزعة لابد أن تكون قطعة من الشمس ولابد كذلك ان تنال الاحترام والولاء من البشر الفانين؛ وبالمثل فانهم قد رمزوا بها فى كثير من الأديان إلى الأشياء بالغة الحقارة والدناءة عندما يظنون أن هذه الأشياء تنتمى إلى اله أو قديس.

ولايزال حجر الكعبة (الأسود) حتى اليوم موضع تقديس من جانب المتعبدين المسلمين، فعلى الحجاج أن يطوفوا به سبع مرات؛ أما أولئك الذين لا يستطيعون ان يقبلوه فيجاهدون كي يلمسوه باليد على الأقل؛ وهو من بين كل "الأحجار" المعروفة أكثرها قدما وأكثرها حظا من التبجيل والاحترام.

تعقيب : ينهار زعم المؤلف من أساسه اذا ما استعدنا قصة إعادة بناء الكعبة فى حياة الرسول (ص) فقد تم ذلك قبل بعثه بالرسالة، وعلى يد قبائل قريش مجتمعة وبادر الرسول الكريم بوضع الحجر فى مكانه حسما للخلاف بين هذه القبائل .. إلى آخر القصة المعروفة، أما إزالة الأوثان فلم يتيسر للرسول (ص) إلا فى العام الثامن من الهجرة، عند فتحه لمكة، ولم يكن الحجر الأسود أحد هذه الأوثان كمايزعم المؤلف الذى تبدو معلوماته عن الاسلام وتاريخه بالغة القصور. والقيمة الحقيقية للحجر الاسود، كما فسر لى =

العبرانيون، فى رأينا، واحدة من أقدم قبائلهم[8]. وتتباهى أمم كثيرة فى الشرق، فى الحقيقة، بأن ابراهيم هو واحد من أجدادها؛ واذا نحينا جانبا الرأى القائل بأن هذه الشخصية، لهذا السبب، لم توجد قط، كما عبر عن ذلك بعض المؤلفين، فاننا نرى فيه، على العكس من ذلك، شهادة على شهرة لم تكن لتنتشر قط عند الكثير من الأمم لو لم يكن لها من أساس واقعى؛ فلقد تنازعت مدن كثيرة على شرف انتساب هوميروس بمولده اليها، فهل يمكن القول بأن هذا الشاعر، لهذا السبب، لم يكن موجودا قط ؟ من ذا الذى لايعرف زهو وخيلاء البشر؟

= أحد العلماء الأجلاء، هو أنه حجر أسود بين أحجار بيضاء، وأنه يحدد بدء الطواف بالكعبة وييسر بالتالى تعداد مرات الطواف بدقة، وهذا شرط أساسى فى مناسك الحج. (المترجم).

(٨) نجد فى التوراة أن غالبية العشائر الرحل التى كانت تقطن صحراوات سوريا والجزيرة العربية سواء كانت تنتمى إلى اسماعيل أو إلى عيسو، كانت تشترك فى أصلها مع العبريين أو كانت تتحد معهم برباط الدم، ولا تزال تشهد شطآن الفرات، كما شهدت شواطئ النيل والأردن، حتى يومنا هذا قبائل من الرحل يعرفون بهذا الاسم النوعى : العرب البدو، ويحيون على وجه الدقة نفس حياة الأسباط أو العشائر الأول؛ ولأن العبريين قد سكنوا جزءا من أرض الكلدانيين يعدون من الكلدان؛ كما أن البدو الذين أشرنا إليهم للتو ليسوا فرسا ولا مصريين ولا سوريين؛ وفضلا عن ذلك ، فلا يهمنا كثيرا أن نعرف ما إن كان العبرانيين هم من نسل العرب أو كان العرب هم الذين جاءوا من أصلاب اليهود؛ ويكفينا أن نعرف أن لهم أصلا مشتركا وتقاليد وعادات متشابهة.

والشعوب، مثلها مثل الأفراد بصفة خاصة، يهتبلون بنهم واضح أقل الشواهد احتمالا لبلوغ أصل قديم ضارب فى القدم، وبعد أن ينجحوا فى خداع الغير ينتهى بهم الأمر أن يخدعوا أنفسهم ؛ والخطأ الذى يحظى بالاعجاب سرعان مالا يعد بعد خطأ.

ويتطابق تاريخ ابراهيم كما قرأناه فى كتب العبرانيين، فى نقاطه الأساسية، مع كتابات المؤلفين العرب والفرس. ومع ذلك ففى حين يقدم سفر التكوين لوحة ساذجة وأمينة عن حياة أحد مشايخ الصحراء، فان هؤلاء المؤلفين قد خلطوا ذلك بأساطير تجافى العقل؛ وهكذا نجد ابراهيم، طبقا لأقوالهم، قد رفض حين جاء إلى الدنيا صدر أمه ووجد فى أصابعه هو غذاءً ربانيا. فمن أحد أصابعه كان يتدفق اللبن ، ومن اصبع آخر تدفق العسل، وعندما بلغ شهره الخامس عشر كانت له قامة رجل يبلغ من العمر خمسة عشر عاما، وحكمة ومعرفة رجل ناضج ؛ وحين أصبح ملاذا للفقراء واستنفد مخازن حبوبه بفعل الصدقات الكثيرة التى كان يقدمها تحول الرمل من أجله إلى دقيق، وقد أمره الله أن يأخذ أربعة من الطير وأن

يمزقها اربا وأن يوزع هذه الأشلاء فوق أربعة جبال وأن يناديها فتجمعت أشلاء الطيور على صوته وطارت نحوه؛ وحين ألقى به فى لهيب متقد فقد لاطفته النار بدلا من أن تلتهمه*.

ومع ذلك فوسط هذه الحكايات الطفلية، الصبيانية بخيالها الفاسد لدى الشرقيين، فهناك نص يتميز بنبل بساطته وسمو العقيدة التى يكرسها جاء فيه : "وبينما كان ابراهيم يمشى مع أبيه أثناء الليل، وهو بعد طفل، رأى فى السماء نجوما ، من بينها – مع نجوم أخرى – كوكب الزهرة الذى كان يعبده كثيرون، وتفكر ! قد يكون هذا هو الرب سيد العالم، ولكن بعد بعض من الوقت والروية قال لنفسه: أرى هذا النجم يغرب ويختفى، فلا يكون هذا اذن هو مدبر الكون، ونظر كذلك للقمر فى تمامه ثم قال : لعل هذا هو خالق كل شىء وهو نتيجة لذلك ربى، ولكنه عندما رآه ينزل عند الأفق مثل الكواكب الأخرى أصدر عليه الحكم نفسه. وبعد أن عكف على التأمل

---

* يلاحظ القارىء ولابد أننا بازاء كاتب يرفض فكرة المعجزة تماما، وهو على هذا الأساس يرفض الأخذ بكثير مما نعده نحن من المسلمات. (المترجم).

والتفكير بقية الليل بطوله، وجد نفسه بالقرب من بابل عند شروق الشمس، ووجد أعدادا لا حصر لها من الناس كانوا يعبدون هذا النجم ويسجدون له مما جعله يقول : هذا كائن يبعث ولابد على الاعجاب وسأتخذ منه خالقا وسيدا لكل الكون، ولكنني تبينت أنه ينحدر ويتخذ طريق الغروب كما تفعل النجوم الأخرى، ليست الشمس اذن خالقى ولا الهى ولا ربى. وبعد ذلك رأى ابراهيم النمرود جالسا على عرش بالغ الارتفاع وحوله يصطف، وفقا لمراكزهم، فرقة من العبيد رائعى الشكل من هذا الجنس وذاك، وسأل ابراهام على الفور: من هذا الشخص الذى يعلو الآخرين على هذا النحو، فأجابه والده : هذا هو رب كل الذين تراهم محيطين به وكل هؤلاء القوم يرون فيه ربهم. وعندئذ تأمل ابراهيم النمرود، وكان بالغ القبح وقال لهم: كيف يمكن أن يكون هذا الذى تدعونه ربكم قد صنع مخلوقات تفوقه فى جمالها؟ وكانت هذه هى المرة الأولى التى بدأ فيها ابراهيم يسعى كى يحرر أباه من أوهام الوثنية، ويدعوه إلى وحدانية الله خالق كل شىء"[٩].

---

(9) D'Herbelot, Bibliothèque Orientale.

الفصل الثانى

عن العبرانيين حتى عصر دخولهم مصر(١٠)

كان العبرانيون فى أقدم مراحل تاريخهم، يشكلون جزءا من هذه الشعوب الجوابة التى – على الرغم من كونها ذات أسماء مختلفة، ومع عادات وتقاليد متشابهة – لم تكن تكف عن الإستحواز على بعض مناطق فيما بين الفرات والنيل.

وهم يستمدون اسمهم من عابر، وهو اسم أحد أجداد ابراهيم ؛ وقد ظلت عادة اتخاذ اسم أحد رؤساء القوم القدامى وخلعه على الأبناء شائعة لدى العرب المحدثين.

وحيث كان هؤلاء العبرانيون قد انغمسوا، شأنهم شأن البدو، فى الحياة الرعوية، وكونوا مثلهم منشآت زراعية قليلة

---

(١٠) نرجو من الذين سيقرأوننا ألا يغيب عن ناظرهم مطلقا أننا لسنا هنا بصدد أن نبرهن على أن هذا الرجل أو ذاك قد وجد، أو أن هذا الحدث أو ذاك قد وقع فى حقيقة الأمر، ولكننا نريد أن نقول فقط انه من المحتمل، أو على الأقل، من الممكن أن تكون الأمور قد جاءت على هذا النحو الذى نسوقه نحن.

الدوام، فقد تركوا أرض كلدان كى يمضوا إلى منطقة من أرض ما بين النهرين تابعة لسوريا، وكانوا فى ذلك الوقت وثنيين ، وكان تارح ، والد ابراهيم، من ناحور وآران، على رأس قبائلهم. وعند موته انقسم القوم : فظل بعض فيما بين النهرين تحت حكم ناحور، وواصل الآخرون مسيرتهم إلى ما وراء الفرات ، ابراهيم ولوط، ولدا آران ، وتكرر حدوث انقسامات مماثلة عند الشعوب الرحل؛ ونستطيع هنا أن نلحق بالأسباب التى حتمت حدوث الانقسامات ، هناك تلك الديانة الجديدة التى كان قد بشر بها ابراهيم. وهى ديانة لم يتبنها فى الواقع أولئك العبرانيون الذين ظلوا فى بلاد ما بين النهرين. وقد أشار سفر التكوين إلى هذا الدافع الذى يكمن وراء الانقسام، اذ نرى فى هذا السفر أن ابراهيم قد انفصل عن أخيه(١١) استجابة لوحى مقدس. وفى هذا تتطابق التقاليد العربية والفارسية، وطبقا لذلك فقد حدث أن ابراهيم، كى

---

(١١) " وقال الرب لابرام اذهب من أرضك وعشيرتك، ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه" سفر التكوين الاصحاح الثانى عشر.

يحافظ على عقيدته وينأى بها عن اضطهادات الوثنيين ، قد انسحب إلى جوف الصحراء. ومع ذلك فقد ظل يسيطر هذا الوفاق الأفضل بين القبائل التى انقسمت على هذا النحو، ويكفى للتدليل على ذلك زواج ابن ابراهيم (اسحاق) من (رفقة) بنت بتوئيل بن ناحور، وزواج يعقوب من بنات لابان بن بتوئيل(١٢).

وتقدم ابراهيم فى البداية نحو الجنوب عبر أرض السوريين، وبعد ذلك دخل مصر ثم عاد إلى سوريا. وهناك انفصل عن (لوط) ابن أخيه، وبعد مرور وقت قصير انتزعه من أيدى أعدائه (أعداء لوط) ، وينظر بعض الكتاب إلى المعركة التى شنها ابراهيم فى هذه المناسبة باعتبارها عارية من أى ترجيح، وبرغم ذلك فليس فى هذا الأمر ما يمكن أن يعد خارقا بالنسبة لشخص عبر صحراوات سوريا وعرف تقاليد الشعوب التى تقطنها. وفى واقع الأمر فان ما هو أكثر من ذلك طبيعة - أى أنه أمر عادى للغاية - أن نرى رؤساء أو

---

(١٢) توجد عند العرب البدو هذه العادة نفسها، عادة تفضيل الأصهار على أشخاص من العائلة نفسها.

ملوكا أمثال ملوك ورؤساء شنعار وعيلام والاسار (بشدة على اللام) وجوييم يشنون الحرب على ملوك سدوم وعمورة وأدمة وصبوييهم وبالع (أو صوغر). وهذه الأسماء الأخيرة هى أسماء مدن ذائعة الشهرة ، ويمكن الظن بأن الأسماء الأخرى تشير إلى بعض فصائل من الفرق الآشورية تقيم بين أربعة شعوب تخضع على الدوام لهذه الامبراطورية (الآشورية) ، كان شيوخ المدن والقرى والقبائل يتحاربون فيما بينهم ؛ وكان شيخ فريق ما من البدو يعيش لأكثر من مرة فى حياته فى حالة حرب مع سلطان امبراطورية الترك القوية، ومع ذلك، فمهما تكن قوة الأمراء الذين أخضعوا البنتابول الأردنى(١٣)، فقد استطاع ابراهيم، باتحاده مع ثلاثة من مشايخ الصحراء هم عاثر واشكول وممرا الأمورى أن يفاجئ وأن يلحق الهزيمة بالمنتصرين. ويقدم لنا التاريخ عددا لا حصر له من أحداث مشابهة؛ فقد استطاع خالد، على رأس ثلاثة آلاف عربى أن يحطم ويشتت فى عصر هرقل وبعد معركة من أشد معارك

---

(١٣) منطقة خماسية المدن (أى بها خمس مدن)، ويطلق اسم البنتابول على العديد من تجمعات مدن مماثلة، ويتكون البنتابول الأردني من مدن : سدوم، عمورة، أدمة، صبوييم، بالع (التى هى صوغر كما تذكر التوراة).

التاريخ بأسا وعنادا جيشا يتكون من عشرين ألفا من الرجال من خيرة جيوش الامبراطورية (الرومانية)؛ واستطاع على بك ضاهر في عصر أقرب، بخمسمائة من البدو أن يلحق الهزيمة بخمسة وعشرين ألفا من الدروز؛ وعلى ضفاف الأردن، عند سفح تل طابور، شتت ألف وخمسمائة جندى فرنسى بقيادة كليبر Kleber ، أمامهم جيشا " **ينتمى إلى مائة شعب مختلف** " كما يقول أهل البلاد " **ويساوى فى عدده نجوم السماء ورمال البحر** "(١٤).

وفى الحقيقة فان اسم **ملك** الذى تمنحه التوراة لرئيس مدينة بمفردها أو شيخ قبيلة واحدة قد أمكنه أن يتوج قصة انتصار ابراهام بهالة مبهرة، فنحن ننسب لهذه الكلمة معنى المقدرة العظيمة (والملك الشاسع)، لكن الكلمات نفسها لاتعنى فى كل الأحوال الأشياء نفسها، وتظل معانيها تتغير فى مختلف البلدان ؛ فشيخ بضعة ألوف من الرجال فى الشرق قد يتسمى باسم أمير الأمراء (أو ملك الملوك)؛ وفى حين أن لقب

---

(١٤) قدر هذا الجيش بنحو خمسين ألف رجل أكثرهم من الفرسان.

ملك هو ما نطلقه نحن على لويس الرابع عشر أو بطل ترموفيل Thermophyles* فانه يخلع فى الساحل الافريقى على رئيس بضع ضياع صغيرة من ضيعات الزنوج؛ وبالمثل فقد تلقى شيشرون التحية من الفرق العسكرية التى أطلقت عليه لقب امبراطور بعد حملته على صقلية، ومع ذلك فليس هناك من يخلط بين سطوة هذا المواطن الفاضل وبين القوة الغاشمة لأولئك الطغاة الذين رفعوا عروشهم عالية فوق أنقاض جمهورية روما.

وبعد أن خلص ابراهام لوطا، عاد إلى بلوطات ممرا الامورى؛ وقد حدث ذلك بعد سنوات عديدة من الوقت الذى حددته التوراة لدمار سدوم وعمورة الذى ربما قد تسبب فى

---

* أو الأبواب الحارة، ممر شهير فى تساليا، حاول عنده ليونيداس الأسبرطى ومعه ثلاثمائة من الأسبرطيين أن يوقف جيش الفرس بقيادة كسركسيس، وحيث لم يتخيل الأخير أن هذه الحفنة من الرجال تعتزم حقا أن تقطع عليه الطريق فقد كتب إلى ليونيداس رسالة لاتضم إلا هاتين الكلمتين : "سلم أسلحتك" فكتب اليه الأسبرطى تحت كلماته " تعال خذها"، ولكن أحد الخونة أرشد الفرس إلى ممر وسط الأحراش يسمح لهم بالاحاطة بالجبل الذى كان يتحصن فيه ليونيداس، وحين تبين الأخير أن من المستحيل عليه أن يتفادى الموت، دعا رفاقه إلى وجبة طعام متقشفة ثم قال لهم " فى هذه الليلة ستتعشى عند بلوتون اله الموتى ". (المترجم).

حدوثه صاعقة رعد أو ثورة بركان.

وتتطابق الرواية التى تحكى إقامة ابراهيم بعد ذلك فى ارض أبيمالك ملك الفلسطينيين وما قدمه اليه هذا الزعيم العبرانى من ثيران وماعز، مع ما يحدث فى أيامنا هذه عندما تريد قبائل جوابة أن تقيم فى أرض لاتملكها.

وقد خلف ابراهيم أبناء عديدين أشهرهم اسماعيل واسحق. وقد أصبح الأول بفعل جسارته زعيما لقبائل عديدة تشكل اليوم الأمة العربية، وحملت فى ذلك الوقت طبقا لتقاليد الصحراوات اسمه وتنادوا باعتبارهم أبناءه[١٥] ، أما الثانى فقد أعقب والده، وترجع جولاته وحروبه وتحالفاته وأخيرا سيرة حياته إلى الوجود الخاص والسياسى لزعيم من زعماء البدو.

وبعد موت اسحق، انفصل ولداه يعقوب وعيسو، وتسمت القبائل التى اتبعت الأخير بعد ذلك (او نسله كما تذكر التوراة) اسم الأدوميين ؛ أما يعقوب فقد استحوذ على الجزء الأكبر من

---

(١٥) انظر دراستنا عن القبائل العربية فى صحراوات مصر، الدولة الحديثة، المجلد الأول، ص ٥٨٠.

ميراث أبيه، وتسمى الرعاة الذين ظلوا محيطين به، وبشكل نهائى، باسم العبرانيين أو الاسرائيليين. وتجىء التسمية الأخيرة من اسرائيل، وهى الكنية التى كان يحملها يعقوب منذ عودته من بلاد ما بين النهرين.

وكان ليعقوب اثنا عشر ولدا أشهرهم يوسف، ولن أستعيد هنا قصته المؤثرة، فكل الناس يعرفونها، ويعرفون أنها تعبر بشكل تام عن تقاليد وعادات شعوب الشرق. وفيما بعد أصبحت أسماء ولديه واخوته تشير إلى أسباط بنى اسرائيل.

كان يعقوب قد أصبح شيخا كبيرا حين الجأته المجاعة إلى ترك ضواحى بير سبع والذهاب إلى مصر حيث حصل من فرعون على اذن بأن يستقر فى أرض جاسان.

وكانت اسرة ملوك الرعاة تشغل فى ذلك الوقت عرش مصر، ونعتقد أننا نجد الدليل - فى الترحيب الذى لقيه ابراهام من قبل، وفى تنشئة يوسف، وبالسماح ليعقوب وأبنائه بالاقامة فى مصر - على تجافى الحنق والتطير اللذين كان يمكن أن يستشعرهما

الحكام من العنصر المصرى بالنسبة لرعاة القطعان[١٦].

وسوف تساعدنا هذه الملاحظة على تعويض النقص الخطير الذى نجده فى الكتب المقدسة منذ موت يوسف حتى مولد موسى،

---

(١٦) مانيتون، يوسيفوس، رد على أبيون، الكتاب الأول، الفصل الخامس.
وقد كان مانيتون مصريا من طبقة الكهان، وكان يشغل منصب كبير كهنة هليوبوليس والحافظ للأرشيف المقدس، عندما كتب تاريخ مصر، ويبدو لنا مؤلف كهذا أنه يستحق على أقل تقدير نفس القدر من الثقة التى تحظى به مؤلفات هيرودت وديودور، برغم قدمها؛ فمهما تكن المجاملة التى أبداها الكهان المصريون نحو هيرودت كبيرة، فان المعلومات التى جمعها منهم عن تاريخ مصر لايمكنها أن تقارن بمؤلف مستمد مباشرة من المخطوطات الأصلية عن طريق رجل يستطيع، حيث هو موكل بحفظها، أن يقارن بينها وأن يرجع إليها وأن يدرسها بعناية دون أن يكون فى عجلة من أمره، شأن مسافر متسرع يريد أن يعرف كل شىء عن البلد الذى يجتازه ، تاريخه ، فلسفته ، عاداته ، جغرافيته ، تاريخه الطبيعى .. الخ.
ويتهم المسيو لارشيه Larchet المترجم الضليع لهيرودت، مدفوعا بشعور من عاطفة تشيع عند رجل يتجاوز دوره كمترجم، يتهم مانيتون بالجهل فى كل مرة لا يكون فيها هذا المؤرخ على وفاق مع هيرودت؛ دون أن يسترعى انتباهه أن مانيتون كان يعرف مؤلفات هذا الأخير، وأنه اكتشف فيها أخطاء عديدة، وأنه بهذه الطريقة على الأقل لم يبتعد عما جاء بها بسبب جهله. وأخيرا فان المسيو لارشيه ينسب معرفة اللغة المصرية القديمة لمواطن من هاليكارناس وينكرها على كبير كهان هليوبوليس؛ ويعطى هذا الحق للأول لأن هذا الرحالة يقرر أن الكهنة المصريين قد قرءوا له حوليات بلادهم كما لو لم يكن بمقدور هؤلاء الكهان أن يشرحوا له باليونانية النصوص باللغة الأهمية من المخطوطات التى أتاحوا له رؤيتها، ثم ينكرها على مانيتون بسبب العصر الذى كان يعيش فيه ، ومعنى ذلك فان أثر رشيد (حجر رشيد) يبرهن على أن اللغة القديمة فى عصر البطالمة، بل حتى الكتابة الهيروغليفية نفسها، كانت لاتزال معروفة من كهان مصر.
=

وإن كان لابد لنا أن نحاول في هذه اللمحة السريعة حول نشأة وسقوط أسرة الملوك الرعاة فى مصر، أن نلقى بصيصا من الضوء على هذا الجزء القديم من تاريخ العبرانيين.

عن فتح مصر على يد الرعاة، وعن العبرانيين منذ وفاة يوسف حتى هروبهم إلى الصحراء

تتم هجرات الشعوب فى معظم الأحيان فرارا من عدو يحمل اليها معه القيود، أكثر مما تتم سعيا وراء مناخ أفضل ؛ وفى معظم الأحيان كذلك، يقوم هؤلاء الفارون، حين يصبحون غزاة بالضرورة، بتأسيس امبراطوريات قوية.

ولكن عندما يدفع حب السيطرة والمجد والثروة، وحده ، أمة ما بأن تحمل السلاح، فانها قد تستطيع أن توسع أملاكها بشكل هائل، لكنها لاتغادر وطنها، فالارتباط بمسقط الرأس أمر أكيد فى كل زمان ومكان، وعندما تشكل الأقاليم المغلوبة والمستعمرات

= وأخيرا فان هذا الاعتراض الذى تكرر مرات كثيرة من أن مانيتون لم يستطع أن يرجع إلى الحوليات المقدسة التى انتزعها ارتكسركسيس - أوخوس حين ضرب هذا الأمير مصر فى الأولمبياد السابع والخمسين يسقط من تلقاء نفسه اذا التفتنا إلى أن ديودور، الذى يقص علينا هذه الواقعة، يضيف بأن باجواس، المقرب من ارتكسركسيس قد رد إلى الكهان المصريين وثائقهم، فى مقابل مبلغ كبير من المال.

البعيدة دولا مستقلة فإنها تحتفظ بعلاقات من المودة والاحترام مع الوطن الأم، تستطيع المصالح أن تعكرها في بعض الأحيان لكنها لاتقدر أن تنهيها بشكل تام إلا بعد قرون طويلة.

وحين يخبرنا التاريخ بأن مصر قد غزاها جيش من الرعاة قادم من جهة الشرق، فانه لا يحيطنا علما بما ان كانت هى روح الغزو أو هى ضرورة دفع عدو قوى هى التى حملت هذا الشعب الرعوى على غزو الأراضى الخصيبة التى يرويها النيل؛ وان كان المرء يستطيع طبقا للمبادىء السابقة أن يستخلص أن فتوحات الآشوريين، بامتدادها إلى جنوب الفرات، كان لابد لها أن تدفع إلى مصر بالقبائل العربية البدوية، التى تشغل جزءا من سوريا والجزيرة العربية. ويتطابق هذا الرأى مع شهادة مانيتون، حين يقرر أن أول ملك من ملوك الرعاة حكم مصر قد وضع الجزء الأكبر من جيشه على الجبهة السورية لأنه كان يخشى قوة الآشوريين.

وقد تبنى الرعاة العرب، دون جدوى، خلال امتلاكهم الطويل لمصر، غالبية طقوس الديانة المصرية، لكن احتفاظهم ببعض عقائدهم، وبصفة خاصة تحالفهم مع قبائل الصحراء الذين واصلوا التضحية لآلهتهم بحيوانات يقدسها المصريون ، جعل

المواطنين من أهل البلاد ينظرون اليهم بكراهية وازدراء.

وقد أدى انتشار أحد الأمراض، وهو البرص أو الجذام، الذى أصبح أكثر شيوعا فى مصر - لأن المنتصرين كانوا ، ربما ، يجهلون مبادىء الصحة التى تدعو إليها الديانة المصرية للتقليل من عمل طقس غير صحى - أدى بالقدامى من أهل البلاد أن يطلقوا عليه اسم مرض الرعاة، وهو الشىء نفسه الذى فعله أهالى نابولى عندما أطلقوا اسم أمتنا، فى القرن الخامس عشر على مرض وافد، وذلك بفعل ما كانوا يكنونه لنا من أحقاد. وقد أوقع اسما "المجنومون او الأنجاس"، اللذان كان المصريون يستخدمونهما سرا للإشارة إلى المنتصرين عليهم، المؤرخين فى أخطاء خطيرة حين اعتقد هؤلاء أن الأمر هنا يشير بالفعل إلى أناس اصيبوا بالجذام، كما لو كان باستطاعة ذوى العاهات والمرضى أن يكونوا هيكل أمة وينشئوا جيوشا قوية !

أما ملوك مصر الشرعيين، الذين لاذوا بالصعيد، فقد كونوا هناك دولة مستقلة ؛ ثم نزل أحدهم ويدعى أليسفراجموتوفيس، ولعل ذلك قد تم بمعونة من الأثيوبيين وبدعوة من الساخطين، نزل نحو ممفيس ، وأحرز انتصارات هائلة على العرب واضطرهم إلى

أن يركزوا قواهم فى أفاريس، وهى مدينة بالغة القوة تقع فى أقصى الشرق من مصر السفلى*.

وباختصار، فيمكن القول بأنه منذ هذه الفترة قد انتهى عهد ملوك الرعاة فى مصر ، بعد مرور نحو خمسة قرون من تأسيس أسرتهم وتربعها فوق عرش الفراعنة، واذا كان كهنة ممفيس وهليوبوليس أو طيبة قد لزموا الصمت بشكل تام عن هؤلاء الملوك عند حديثهم إلى هيرودت ، فقد كان ذلك دون ريب لأنهم كانوا يضعون فى عداد ملوك مصر أولئك الأمراء من الجنس المصرى الذين حكموا مصر خلال الفترة نفسها من الزمن، اذ كانوا يعتبرون هؤلاء الذين صمتوا عنهم ملوكا غاصبين.

أما تحيموسيس (أحمس)، ابن وخليفة اليسفراجمو توفيس، فقد حاصر فى أفاريس بقايا جيش الرعاة، وعندما لم يتمكن من

---

* يقول الأستاذ محمد رمزى فى قاموسه الجغرافى للبلدان المصرية، الجزء الأول الخاص بالمدن المندرسة، من مدينة أفاريس : أواريس مدينة أنشأها الهكسوس جنوبى بيلوز (الفرما)، وأسموها هات أورات Hat Awrat ، ومنها اسمها أواريس، وقد اتخذها رمسيس الثانى سكنا ومعسكرا له، وسماها برمسيس أو مدينة رعمسيس. وقد اندثرت الآن وحل محلها تل الحير أو الهير؛ وظن بعض الباحثين أنها هى مدينة تيكو التى أسماها الرومان هيروبوليس ومكانها الآن تل المسخوطة. (المترجم).

الاستيلاء عليها، وافق أن تخرج الحامية من أرض مصر مع كل ماكانت تملكه.

وقد عبر هؤلاء الرعاة صحراء سوريا، ولما كانوا يخشون بأس الآشوريين - وكان هؤلاء بالغى القوة فى آسيا - فقد استقروا فى جبال الجودية حيث أسسوا مدينة جيروزاليم (أو : اورشليم)(١٧) ؛ وان كان هذا الفريق من الأمة التى أدى إستحوازها على مصر لفترة طويلة، إلى تبعثرها بالضرورة في كل البلدان، قد اضطر للخضوع وأن يستسلم بدوره لما يمليه عليه قانون المنتصر.

أما العبرانيون، الذين كانوا قد وجدوا قبل ذلك فى مصر، مأوى وحماية، بسبب أصلهم المشترك وتطابق عاداتهم وتقاليدهم مع عادات وتقاليد الرعاة (العرب) فقد واصلوا سكنى هذه المنطقة، وجرت عليهم نفس أقدار المهزومين، وانسحب عليهم ما كان يكنه الوطنيون من أحقاد نحو هؤلاء الرعاة، وأخذ الوطنيون يشيرون

---

(١٧) كانت هذه المدينة في واقع الأمر موجودة حين دخل الاسرائيليون، بعد وفاة موسى، أرض كنعان، لكنهم لم يستحوزوا عليها بشكل مطلق إلا فى عهد داود.

إلى هؤلاء وأولئك، دون مواربة ، باسم الأنجاس أو المجذومين.

وقد ظل الأنجاس، وهى تسمية كان يندرج تحتها كذلك المصريون الذين تمثلوا بعض ممارسات الرعاة الدينية، يتمتعون فى مصر، مع ذلك، بقدر محدود من الحرية حتى عصر أمينوفيس، والد سيزوستريس الشهير؛ بل لعل القوم قد تركوا كذلك لعدد من القبائل مقاطعات صغيرة ضئيلة الأهمية، على تخوم صحراء ، أو فى مستنقعات مصر السفلى، وهو أمر لا يزال يتم حتى اليوم مع البدو. وقد أمن أمينوفيس، يدفعه فى ذلك الكهان ، انه سوف يتقرب إلى الآلهة ، باضطهاده للرعاة، وكل المصريين الذين لم تعد عقيدتهم - فى رأيه - خالصة نقية، فجمع عددا كبيرا منهم، استخدمهم فى قطع الأحجار من جبل المقطم.

وبعد ذلك ، دفعت بعض المخاوف الأسطورية، والمتطيرة، أمينوفيس لأن يسمح لكل هؤلاء البؤساء بالانسحاب إلى أرض جاسان ؛ وهناك اختاروا رئيسا لهم، واحدا من كهنة هليوبوليس اسمه أوزرسيف، كان قد نفى معهم بسبب آرائه الدينية دون شك؛ ولحق به وانضم اليه كهان مصريون آخرون كانوا يشاطرونه معتقداته، وتبع هؤلاء كل الأشخاص الذين يريدون الفرار من

اضطهادات واقعة أو يخشون من حدوث اضطهادات جديدة ، لأنهم يفكرون بالطريقة نفسها، وقد أعطى أوزرسيف لهذه الألوف من المنشقين المصريين، وللقوم من جنس الرعاة، ديانة خاصة كانت بالضرورة خليطا من ديانتى هذين الشعبين، وأمر هؤلاء ألا يتصاهروا إلافيما بينهم، ولكى يحول دون حدوث أى صلح بين هؤلاء وبين المصريين، أباح لأتباعه أن يأكلوا حيوانات كانت تعد مقدسة عند هذا الشعب ، وأصدر تعليماته لهم بهدم تماثيل آلهة مصر.

وقد كانت النتيجة الحتمية للاضطهادات الدينية من جانب أمينوفيس، والحروب والثورات ونوبات الغزو الأحنبى التى نبحث عنها أن اضطر عدد كبير من العائلات أن تبحث لأنفسها، ومعها آلهتها عن وطن جديد. وعلى هذا، يكون هذا الوقت هو الفترة المحتملة التى نشأت خلالها مستعمرات عديدة فى بلاد الاغريق؛ فان رأى البعض أن هذه الديانة لم تكن هى، على وجه الدقة، نفس الديانة المصرية القديمة فاننا نضطر إلى الظن بأن مؤسسيها كانوا من هؤلاء الرعاة القدماء الذين لم يقتفوا جميعا - وهذا مرجح - معتقدات أوزرسيف، والذين كانت لهم، بالضرورة، فى

عاداتهم أوجه شبه مع الفينيقيين والمصريين[١٨] ، باعتبارهم ينتمون أصلا إلى الشرق، وتطبعوا بهذه الخصال على ضفاف النيل بفعل سلسلة طويلة من الأجيال، وإذا لم يكن كتاب أريوس،

---

(١٨) فى واقع الأمر فان الاحتمال ضئيل فى أن يكون المصريون قد أسسوا المستعمرات العديدة التى تنسب اليهم عادة، فهم الذين أغلقوا لوقت طويل للغاية أبوابهم فى وجه تجارة البحر الأبيض المتوسط اذ كانوا ينفرون من هذا البحر ويكنون له الكراهية، كما أنهم أخيرا كانوا يرتبطون بروابط كثيرة بمسقط رأسهم، لأنهم أثرياء، تجمعهم دولة وحكومة، وتتحكم فيهم الأساطير الدينية؛ لكن الأمر ليس على هذا النحو بالنسبة للرعاة، فأمة تتكون من قبائل متفرقة يصعب عليها أن تظل متحدة؛ فالرؤساء القلقون أو الساخطون ينعزلون بأنفسهم، ويسعون لأن ينشئوا لأنفسهم مؤسسات أو أنظمة خاصة بهم، ولم يكن الرعاة الذين فتحوا مصر يتعلقون ببلد أكثر مما يتعلقون بآخر، لقد كانوا رحلا ومقاتلين، وسرعان ما قدر عليهم أن يعملوا بالملاحة، على طريقة هؤلاء العرب – وهم من نفس جنسهم، وقدموا من نفس صحراواتهم – الذين حملوا معهم إلى أسبانيا، فى القرن الثامن (الميلادى)، الفنون والعلوم التى أرادوا هم أنفسهم قبل ذلك بوقت قصير أن يمحوا كل أثر لها، حين حرقوا مكتبة البطالمة (سبق لنا أن دحضنا هذا الافتراء عندما نقلنا رأى جاستون فييت بهذا الخصوص عندما ورد مثل هذا الزعم فى دراسة جراتيان لوبير عن مدينة الاسكندرية؛ انظر المجلد الثالث من الترجمة العربية – المترجم).

اذن فيبدو مما لاريب فيه أن هؤلاء الذين نقلوا الى اليونان فنون مصر، هم هؤلاء الرعاة الذين أدى بهم استحواذهم الطويل على مصر لأن يتمثلوا هذه الفنون. وهذا الرأي هو نفس رأى فريريه Fréret وهو لايسلب قط عن مصر العليمة مجد أنها أمدت اليونان بالبذور الأولى لحضارتهم، وهى بذور ثمينة دون شك، لكنها قد تطورت وتقدمت بسرعة بالغة تحت سماء اليونان

ملك لاسيديمونيا إلى اونياس كبير أحبار اليهود، مزيفا قط، فانه يأتى ليدعم هذا الرأى : الذى يعطى العبرانيين وبعض أمم الأغريق ، أصلا مشتركا[١٩].

وأخيرا فان علينا أن نجعل مولد موسى يتم فى عهد أمينوفيس هذا، وأن نضع فيه أيضا أول الاضطهادات التى لحقت بالعبرانيين، والذى تشير اليه التوراة.

وقد دفع الخوف من سطوة فرعون، وكذلك، وبدون جدال، الرغبة فى الانتقام، أوزرسيف لأن يطلب من رعاة الجودية أن يلحقوا به، ليزحفوا معا لفتح مصر، وذكرهم بأنهم كانوا من قبل قد تملكوا هذه البلدان الثرية، وبأن قد لحقت بهم (هناك) اهانات

= الناضرة، موطن ربات الفن والجمال حيث ارتقى الجنس البشرى لأسمى درجات النبل والحرية والسعادة.

(١٩) واليكم ترجمة هذا الكتاب كما أورده المؤرخ يوسفوس " من ملك الأسبطيين (أصل لاكيدايمونيا) أريوس أويناى - تحية وسلاما. حدث ان وجدت فى بعض النقوش أن اليهود وأهل لاكيدايمونيا ينتمون لجنس واحد وأن الأخيرين ليسوا بغرباء عن نسل ابراهام. لذلك فمن الأوفق - مادمنا اخوة - أن تطلعونا على كل ما ترغبون فيه، ونحن من جانبنا سنفعل الشىء ذاته، ولسوف نعتبر شئونكم مثل شئوننا سواء بسواء، وبالمثل سوف تكون بيننا وبينكم علاقات مشتركة ، وان ديموتيليس الذى يحمل هذه الرسالة هو الذى سيقوم بحمل رسائلنا، وهذه الرسالة مدونة فى صفحة مربعة الشكل وتحمل خاتما هو عبارة عن نسر يصارع ثعبانا".

ينبغى الاقتصاص فيها، وهرع أهالى أورشليم إلى أفاريس استجابة لنداء اخوتهم، وانضموا اليهم، وحملوا على مصر "فلم يكن ثمة ضرب من ضروب القسوة لم يرتكبوه، كما يقول مانيتون، ولم يكتفوا باحراق المدن والكفور وتحطيم صور الآلهة، وانما قتلوا حتى الحيوانات المقدسة، وأرغموا الكهان المصريين والعرافين بأن يكونوا هم ذابحيها، ثم أطلقوهم بعد ذلك عراة كما ولدتهم امهاتهم".

وانسحب أمينوفيس إلى ما وراء الشلالات على حدود مملكته، وثبت هناك بدعم من الأثيوبيين مدة ثلاثة عشر عاما يناوىء الرعاة؛ وفى نهاية هذه المدة جمع قوات كبيرة، ونزل إلى مصر السفلى وهزم أوزرسيف، وطارده، ودفع نحو سوريا شتات جيشه.

وإذا ما صدقنا رواية مانيتون، فلابد أن يكون أوزرسيف هو موسى نفسه، ولابد أن يعترف المرء أن التشابه بينهما شديد، بل قد يكفى الافتراض بأن الجودية كانت قد تم غزوها على يد قبائل أخرى، فى الوقت الذى كان سكانها فيه يخربون مصر كى نفسر اقامة الاسرائيليين الطويلة (تيههم) فى الصحراء، وكذا الحروب التى كان عليهم أن يخوضوها كى يعودوا إلى سوريا بعد أن تم

طردهم من أرض جاسان. ومع ذلك ، فإذا ماقبلنا، فيما يتصل بالوقائع الأساسية ، أن يكون هذا الرأى محددا للاطار العام لذلك الذى جاء فى أسفار موسى الخمسة ، فينبغى القول أيضا بأنه سيظل يوجد فى قصة موسى، اذا ماتبنينا هذا الرأى، عدد هائل من الأحداث لابد أن نلقى بها جنبا إلى جنب مع الأساطير. وفضلا عن ذلك، فمن السهل أن نوائم بشكل أفضل بين ما جاء بكتب العبرانيين وبين ما جاءت به كتب التاريخ الدنيوية؛ وهكذا نستطيع، على سبيل المثال، القول، مرتكزين على أسس كافية بأن جزءا من الرعاة الذين هزمهم أمينوفيس قد ظلوا أسرى فى مصر، حيث فرضت عليهم اقسى درجات العبودية، وأن القبائل الاسرائيلية، قد تلفتت فاذا بها ضمن هؤلاء العبيد.

فلنقبل اذن الفكرة القائلة بأن العبريين كانوا لا يزالون يقطنون مصر حين اعتلى سيزوستريس العرش.

ومع ذلك فان المباهج التى تمتع بها المصريون فى عهد هذا الملك الشهير تحول دون أن ننسب لعهده تلك الكوارث التى خربت هذه المملكة وأدت إلى تخليص شعب الله. لقد كان سيزوستريس شديد البأس، لحد لايستطيع معه أن يخشى من هؤلاء العبيد

البؤساء، الذين عرف كيف يفيد منهم حين استخدمهم فى اقامة الجسور وحفر الترع وبناء المدن ، وهى أعمال خلدته بأكثر مما خلدته فتوحاته.

وقد خلفه ابنه الذى يسميه هيرودت فيرون فى حين يسميه ديودور سيزوستريس الثاني؛ لكن الابن لم يرث لا فضال ولا مواهب والده ، ويصوره التاريخ أميرا ضعيفا، متطيرا، يؤمن بالخرافات، وقاسيا. ويبدو أن يد الرب، على حد قول المؤرخين الدنيويين أنفسهم، قد ثقلت عليه، ففاض النهر بدرجة غير مألوفة ودمر القرى والحقول وأفزعت العواصف والأعاصير والسيول الشعب، وأصيب الأمير بعمى البصيرة حتى غمت عليه هذه العلامات التى تنذر بغضب السماء[٢٠].

ونعتقد نحن من جانبنا أن فى عهد هذا الأمير – ولابد – تمت عملية هروب العبرانيين إلى الصحراء.

---

(٢٠) هيرودت، الكتاب الثاني؛ ديودور، الكتاب الأول.

هروب العبرانيين إلى الصحراء

بعد الهزيمة الماحقة التى حاقت بالرعاة، أرغم العبريون على ترك الحياة الرعوية، وبعد أن كانوا بدوا تحولوا إلى فلاحين[٢١] وارهقوا بالأعمال، ولكنهم لم يستطيعوا طيلة العهد الطويل والمجيد لسيزوستريس أن يتملصوا من العبودية، ومع ذلك، فحين لقوا بعض المعاملة الانسانية بلا ريب ، تضاعفت أعدادهم ، وحيث قد بدأوا يستوعبون حالتهم الجديدة، فقد كان كل يوم يمر، يجعل من العسير عليهم أكثر من ذى قبل أن يخرجوا (من مصر) ، ثم ارتقى فيرون العرش وأثقل كاهل العبرانيين بنير من حديد[٢٢] ، فلم يجد هؤلاء البؤساء الذين كانوا يئنون فى صمت أية نهاية لآلامهم إلى أن ظهر بينهم واحد من أولئك الرجال غير العاديين الذين يبدون وكأنما قد جاءوا خصيصا لتغيير أقدار أمتهم. وكان موسى عند طفولته قد جرفه الماء، وكان هذا فى عصر أمينوفيس، وأنقذت

---

(٢١) لاتزال تغييرات مماثلة تحدث فى بعض الأحيان فى مصر بين القبائل العربية التى استقرت فيها، انظر دراستى عن القبائل العربية فى صحراوات مصر، الدولة الحديثة، المجلد الأول، ص ٥٧٩ ، (وانظر كذلك دراسة جومار عن العرب والعربان فى مصر الوسطى). (المترجم).

(٢٢) سفر الخروج، الاصحاح الثالث، الآية ٧.

ابنته حياة الطفل العبرانى، لكنها لم تكتف بما قدمته إليه من رعاية واحسان وانما أمرت بتعليمه كل حكمة المصريين وعلومهم، ومن المعروف أن العلوم والفنون فى مصر كانت فى ذلك الوقت فى أوج ازدهارها؛ واذ اضطر موسى بعد موت تلك التى أحسنت إليه لأن ينجو بنفسه لائذا بالصحراء لقتله أحد المصريين ، فقد فر إلى البحر الأحمر ليقيم بين عرب مديان (مدين)، وذكره نمط حياة هذه القبيلة بلا ريب بالزمن الذى كان ابراهام فيه يتجول فى عزلة بقطعانه؛ وبدت له الحرية والاستقلال، برغم ضروب المخاطر وصنوف الحرمان أفضل كثيرا من العبودية مع الوفرة والسكينة؛ وصمم مشروعه النبيل لقطع أغلال العبرانيين.

وعند قمة جبل حوريب، وسط البروق والرعود، وعلى مشهد البحر الهائج والصحراء الصموت، تأمل طويلا، فى عزلته بعيدا عن البشر، مشروعاته الواسعة(٢٣) ؛ وفى النهاية رجع إلى اخوانه ودعاهم للهروب، وتذرع فى ذلك عند فرعون بأنهم سيقدمون

---

(٢٣) نجد فى حياة محمد (ص) خصوصية مماثلة، فقد كان ينشد العزلة فى غار فى جبل حراء، ويمضى هناك خمسة عشر يوما (كذا !) فى حياة العزلة قبل أن يعلن نبوته. وليست هذه وحدها فقط هى نقطة التشابه التى نجدها بين هذين المشرعين (كذا !).

أضحية فى الصحراء : "فدعا فرعون موسى وهارون وقال اذهبوا اذبحوا لالهكم فى هذه الأرض، فقال موسى لا يصلح أن نفعل هكذا ، لأننا إنما نذبح رجس المصريين للرب إلهنا، إن ذبحنا رجس المصريين أمام عيونهم أفلا يرجموننا ؟" [٢٤].

وتردد الملك : هل يعطى الاذن المطلوب منه أم يرفضه، هل يخفف من شقاوات العبرانيين أم يضاعف منها، ويتأرجح الملك بين هذا الموقف وذاك تبعا لدرجة الفزع الذى ينتابه كلما توالت الكوارث التى كانت تفكك وتدمر دولته* وعلى الدوام فإن أفكار الإنسان المسبقة وخرافاته تربط أقداره بنظام الكون.

ولقد وردت فى ذلك الجزء من الكتب المقدسة الذى تناول هذه الفترة وقائع كثيرة، لكنها برغم خروجها عن كل مألوف، تتوافق مع روايات المؤرخين الدنيويين[٢٥] ومع الحالة الراهنة لهذه البلاد، فلا يزال الحواة هناك حتى اليوم يأتون مع الثعابين بأشياء خارقة تعد من قبيل المعجزات، فهم يستدعونها وينومونها ويخدرونها

---

(٢٤) سفر الخروج، الاصحاح الثامن، الآيتان ٢٦ و ٢٧.

* بسبب غضب الرب عليه لرفضه السماح بخروج بنى اسرائيل من مصر كما يشرح ذلك سفر الخروج. (المترجم).

(٢٥) هيرودت ، ديودور .. الخ.

حتى تظن أنها قد ماتت، ويعلمونها كذلك كيف تنهض واقفة وتتبع سيدها على هذه الحال، ثم يخبئونها فى ثنايا ثيابهم ويتلفعون بها حول رقابهم دون أن يخشوا أن تلدغهم؛ ولعل جراح مصر التى لا تندمل تتمثل فى مياه النيل، الصفراء والخضراء العكرة والضارة فى بعض الأوقات، والتى يمكنها على نحو يكاد يكون ثابتا، وحين تتغير أحوالها بغتة عاما ما، أن تروع الشعب، كما تتمثل فى الحشرات من كل نوع* تلك التى تكثر بوفرة فى بعض الأحيان فى مصر وبطريقة مفزعة فى كل مكان تشتد فيه الحرارة والرطوبة(٢٦)؛

* يتحدث سفر الخروج عن أن الرب قد ابتلى مصر بالضفادع التى كثرت حتى ملأت البيوت والأنهار ثم ابتلاها بعد ذلك بالبعوض ... الخ. (المترجم).

(٢٦) يمكننى أن أذكر هنا، نقلا عن المؤرخين العرب، سنوات كثيرة كانت فيها الضفادع والثعابين وفيرة حتى ظن الناس أنها تتساقط من السماء، وأكتفى بأن أورد هنا واقعة كان المقريزى نفسه شاهدا عليها، وقد كتب فى هذا الخصوص : أنه فى العام ٧٩١ والأعوام التالية تزايد الدود الذى كان يهاجم الكتب والأقمشة الصوفية بشكل كبير فى المنطقة المحيطة بمرعى الزيات الواقع خارج القاهرة بين المطرية وسرياقوس؛ وقد أكد له رجل أهل للثقة أن هذه الحشرات قد قرضت له ١٥٠٠ قطعة قماش تشكل حمولة أكثر من خمسة عشر جملا، وحين دهش المقريزى من حادثة شاذة لهذا الحد فقد اتخذ طبقا لعادته كل الاحتياطات اللازمة كى يتأكد من الحقيقة. فشاهد بعينى رأسه أن الخسارة التى سببتها الديدان لم يكن (تقديرها) مبالغا فيه، وانها دمرت فى الجهات التى تحدث عنها كمية كبيرة من الخشب والأقمشة، وقد شاهد بالقرب من المطرية جدران حديقة بها صدوع وتشققات طويلة وعميقة أحدثتها هذه "الحيوانات" الصغيرة. وفى نحو العام ٨٢١ تكررت هذه الكارثة فى حى الحسينية الواقع خارج القاهرة؛ فبعد أن أتت الديدان على كل مايؤكل وما يلبس .. الخ، وهو ما سبب للسكان خسائر لا يمكن حسابها، =

وفى الطاعون الذى يخرب هذه البلاد من وقت لآخر، ويبدو فى معظم الأحيان وكأنما يصر على افناء جنس دون آخر، وفى الرعود والبرد (بفتحة على الراء)، نادرى الحدوث حتى أنه لايسمع بحدوثهما هناك، وقد لا يحدثان سوى مرة واحدة على مدار قرن بأكمله، فهما إذا حدثا لن يسببا سوى الفزع الشديد، وأخيرا فى أسراب الجراد التى تأتى من جوف الصحراوات ثم فى الظلام المؤقت الذى تسببه الدوامات الترابية التى ترفعها وتحملها رياح الخماسين، وفى هذه الريح المؤذية نفسها والتى لايحس بها الناس فى كل أنحاء مصر، دفعة واحدة(٢٧).

فلنجنب اذن من وصف النكبات التى حلت بمصر تلك

= هاجمت البيوت وقرضت العوارض التى تصنع السقوف حتى أصبحت هذه العوارض جوفاء تماما، وأسرع الملاك بهدم البيوت التي غزتها الديدان حتى كاد الحي أن يكون قد دمر دمارا تاما. ثم مدت هذه الحشرات نطاق دمارها حتى بلغت البيوت التي تجاور بابي النصر والفتوح. ولم تكن تلفياتها هناك أقل عنها فى المدينة ومكة حيث قرضت الديدان سقف الكعبة – عن ترجمة ايتان كارتمير.

(٢٧) عندما تهب الخماسين، تصبح الشمس ذات صفرة كابية، وتتحبس أشعتها، وتزيد العتمة فى بعض الأحيان حتى يظن المرء أننا قد بتنا فى ليل شديد الحلكة، على النحو الذى رأينا بأنفسنا عند منتصف النهار، فى قنا، احدى مدن الصعيد، ويورد بعض المؤرخين العرب، أنه عندما غزا السلطان سليم مصر، فان السماء قد وهبته نفس "الخدمة" التى قدمتها لموسى، فقد حجبت سحابات كبيرة سوداء، مسيرة جيشه، عن عدوه طومان باى.

المبالغات الشاعرية المسموح بها، لشخص يحلو له أن يسترسل فى وصف الظواهر التى استخدمها لتخليص شعبه وسوف نرى كل سطوة لها قد خبت، ومع ذلك فان تتابع أحداث كثيرة غير مألوفة، برغم كونها مع ذلك ظواهر طبيعية، مع مالها من نتائج على قلب فرعون القاسى، يمكنه أن يعد برهانا قويا على حماية الرب.

فهذا الحاكم فى الواقع لم يستطع أن يقاوم شكاوى رعيته التى كانت تنسب آلامها ومصائبها، بعد أن أصابها طاعون فتاك، إلى رقيات "الأنجاس" المؤذية فاعتقدت الرعية أن إبعاد هؤلاء، سيجعل الآلهة أكثر لطفا بها: "فدعا - أى فرعون - موسى وهارون ليلا، وقال قوموا اخرجوا من بين شعبى أنتما وبنو اسرائيل جميعا"(٢٨).

---

(٢٨) سفر الخروج، الاصحاح الثانى عشر، الآية ٣١.

مسيرة العبرانيين فى الصحراء
حتى المنطقة التى عبروا عندها البحر الأحمر

رحل الاسرائيليون من أرض جاسان، ولا يمكن أن تكون هذه المنطقة سوى منطقة السبع أبيارالممتدة إلى الشرق من مصر نحو سوريا، لأننا نقرأ فى سفر التكوين (الاصحاح السادس والأربعين) انه عندما غادر يعقوب ضواحى غزة كى يذهب إلى مصر، أرسل يقول ليوسف الذى كان يقيم فى ممفيس أن يأتى للقائه "فأرسل يهوذا أمامه إلى يوسف ليرى الطريق أمامه إلى جاسان ثم جاءوا إلى أرض جاسان"، وقد ترجم النص على هذا النحو فى التوراة اللاتينية* "وأرسل يعقوب يهوذا أمامه إلى يوسف لينبئه بمجيئه لكى يأتى هو أمامه فى أرض جاسان"؛ فقد كانت أرض جاسان اذن تقع على الطريق بين ممفيس وغزة، وقد منحت للاسرائيليين

* الـ Vulgate هى الترجمة اللاتينية للتوراة، وهى المستعملة فى الكنيسة الكاثوليكية؛ وقام بالجزء الأكبر من هذه الترجمة سان جيروم، وقد قرر مجمع الثلاثين فى العام ١٥٤٦ أن يعد هذا النص المرجع الأوحد للتوراة. (المترجم)

بالطريقة نفسها التى منحناها بها – أثناء اقامتنا فى مصر – لثلاث قبائل عربية(٢٩)، جاءت – كما جاء العبرانيون – من سوريا.

أما وقد عرفنا نقطة البدء، فسوف يكون من السهل علينا أن نتتبع مسيرة الاسرائيليين؛ كان موسى يريد أن يقودهم إلى ضواحى جبل سيناء، وكان واثقا أنه سيقابل بالترحاب من عرب مدين، لأنه عاش طويلا بينهم، وتزوج من (صفورة) ابنة كاهنهم يثرون، وكان طريقه المباشر يقتضى المرور شمال البحر الأحمر، لكنه خشى ان هو اقترب أكثر مما ينبغى من بلاد الفلسطينيين أن تنهض ضد الاسرائيليين حروب تجعلهم يأسفون لفراقهم مصر ويعتزمون العودة اليها(٣٠)، ولذلك فقد آثر موسى أن يسير بحذاء

---

(٢٩) وهذه القبائل الثلاث هى : ترابين (أو طرابين) الكبرى، عرب طحا (أو عرب طه؟) ، والأناجير، وكان هؤلاء فى ذلك الوقت فى حرب مع باشا غزة الذى كان قد دبر لاغتيال كبار شيوخهم.

(٣٠) سفر الخروج، الاصحاح الثالث عشر، الآية ١٧ (وهذا هو نصها : «وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم فى طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة، لأن الله قال لئلا يندم الشعب اذا رأوا حربا ويرجعوا إلى مصر»).

الساحل الغربى للخليج العربى* ، وتجنب بذلك، فى الوقت نفسه، أن يثير، لأكثر من اللازم، وفى وقت مبكر، الريبة فى عزمه على الهروب، لدى فرعون، الذى أعطاه الاذن بأن يقود شعب الله فى الصحراء لتقديم الأضحيات. ولهذا فان موسى - كما جاء فى سفر الخروج نفسه - قد أمر بأن يقوم العبرانيون فى مسيرتهم بلفة طويلة، وصحبهم، متخذين طريق الصحراء التى تقع بالقرب من البحر الأحمر(٣١).

لكن الوضع الحالى للخليج العربى سوف يحول فى الواقع دون تصور كيف وجد الاسرائيليون أنفسهم على الفور على شواطئه عند خروجهم من أرض جاسان، ان لم يكن المرء على بينة من ان الخليج، فى الفترة المتأخرة التى نحن بصددها، كان يمتد إلى مسافة قريبة من منطقة السبع أبيار: وتأتى طبيعة الأرض بين هذه النقطة وبين مدينة السويس، مع ترسيبات القواقع البحرية، وعدد لا حصر له من ملاحظات جغرافية أخرى، تضاف

* البحر الأحمر. (المترجم).
(٣١) سفر الخروج، الاصحاح الثالث عشر، الآية ١٨ (وهذا نصها : «فأدار الله الشعب فى طريق برية بحر سوف»).

إليها شهادات القدماء – لتعطى لهذا الرأى، على أقل تقدير، أكبر قدر من الترجيح[٣٢] وهكذا يمكننا أن نتصور كيف سار الاسرائيليون، فى ذلك الوقت ثلاثة أيام بالقرب من البحر الأحمر لكى يصلوا إلى النقطة التى يحدد عندها الأثر طريقهم الذى شقته لهم المعجزة بين الأمواج.

كان محطهم الأول يسمى سكوت، وهى كلمة تعنى الخيمة، ويمكنها أن تدفع إلى الظن بأن هذا الاسم لاينطبق أبداً على مدينة

---

(٣٢) وهذا دليل جديد على صحة رأيي عن الحدود القديمة للبحر الأحمر. انظر دراستى حول هذا الموضوع، الدولة الحديثة، المجلد الأول، ص ١٨٧ (المجلد الثالث من الترجمة العربية) ولكننى أكتفى هنا بنقل هذه الفكرة عن نيبور Niebuhr ، والتى لم أكن أعرفها فى حينها، والتى تتفق مع أفكارى : « ويقول الرحالة دانوا Danois : ان شاطئ البحر قد تغير هنا كما حدث له فى أماكن أخرى؛ ويقابل المرء على كل ساحل الجزيرة العربية آثار انحسار البحر، فعلى سبيل المثال مخا التى يقول عنها كل القدماء بأنها كانت ميناء العربية السعيدة (اليمن) تقع اليوم بعيدا عن البحر بفراسخ عدة، ونرى اليوم بالقرب من ألوحه وجدة تلالا كبيرة تمتلئ بالمرجان والقواقع من الأنواع نفسها التى نراها حية فى الخليج العربى (البحرالأحمر)، وتوجد بالقرب من السويس تكلسات من كل هذه الأشياء. وقد رأيت على بعد ثلاثة أرباع الفرسخ، نحو الغرب من هذه المدينة أكمة من القواقع الحية فوق صخرة لا تغطيها المياه إلا بفعل حركة المد والجزر. وهى عالية لحد لا تبلغها معه مياه هذه الحركة، اذن فمنذ ألوف عدة من السنين كان الخليج العربى أكبر اتساعا، كما كان يمتد لأكثر من ذلك تجاه الشمال، وبصفة خاصة ذراعه القريبة من السويس؛ لأن الشط عند هذا الطرف من الخليج بالغ الانخفاض».

قديمة وانما على مجرد معسكر. وزيادة على ذلك، فهناك خرائب عديدة على حواف الأرض التى هجرها البحر، وهذه أو تلك يمكنها أن تنتمى إلى سكوت ، وفى اليوم التالى عسكروا فى ايتام عند طرف " البرية"(٣٣).

ويدفعنى هذا الموقع لأن أجزم انه بير السويس(٣٤)، الذى يقع فى الحقيقة، وكما يبدو، عند طرف الصحراء اذا كنت قادما من جهة السبع أبيار، لأن البحر، باتخاذه شكل مرفق يتجه إلى الغرب، يبدو، عند اتصاله بسلسلة جبل عتاقة العالية، وكأنه يشكل النهاية الجنوبية للصحراء : وفضلا عن ذلك، فان المياه العذبة بالغة الندرة فى كل هذه المنطقة، كما أن الآبار، ولابد، هى التى تحدد

---

(٣٣) سفر الخروج، الاصحاح الثالث عشر، الآية ٢٠.

(٣٤) بير السويس تعني البئر الموجودة بمدينة السويس؛ ويقع هذا المكان على مسافة نحو الفرسخ الى الشمال الغربي من السويس، وهويشتمل على سورين صغيرين متلاصقين، ومهشمين جزئيا، وينسب بناؤهما إلى السلطان سليم الأول. ووسط واحد من هذين السورين توجد بئر لمياهها مذاق غير مستساغ تفوح منها رائحة هيدروجين كبريتي. ولا تستخدمها فى العادة الا الحيوانات، ولكنني شربت منها دون أن أشعر بقرف، وكذلك فعلت السرية التي صحبتها معي. فقد وصلنا إلى هنا بالغي الظمأ وبعد نهار شديد القيظ ومسيرة مرهقة على الأقدام، وقضينا منه الثمانية عشرة ساعة الأخيرة دون ان نشرب. ويلمح المرء خارج السور بقايا مجرى مائى كان يستخدم فيما مضى فى توصيل مياه البئر إلى السويس.

النقاط التى تحط عندها القوافل.

وبعد ذلك تحدث الرب إلى موسى قائلا : "كلم بنى اسرائيل أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون"(٣٥) ومن السهل أن نتبين سبب هذا الارتداد إلى الخلف، فلعل فم الحيروث أن يكون مكانا حصينا به حامية مصرية. وفى الواقع فان المرء يرى أن الاسرائيليين لم يدخلوه قط، وانما عسكروا تجاهه على شاطىء البحر، وهناك كان عليهم أن يعبروا، وأمكنت حاجتهم للماء العذب أن تدفعهم إلى اجتياز هذه النقطة فى اليوم التالى؛ وبمعنى اخر، فعلى بعد نحو ثلاثة فراسخ من بير السويس، مع الارتداد نحو وادى السبع أبيار، نجد قصرا قديما وحصينا يسمى الها جيروث (العجرود)؛ وفى النص العبرى نجد أن المقطع Phi (فى) ينفصل بصفة دائمة عن كلمة الحيروث، بل لقد حذف تماما فى الآية الثامنة من الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر العدد*، ويعتقد ان كلمة Phi او Pi (فى أو بى) كانت هى أداة

(٣٥) سفر الخروج، الاصحاح الرابع عشر، الآية ٢.

* وتقول هذه الآية :"ثم ارتحلوا من أمام الحيروث وعبروا وسط البحر إلى البرية .. الخ".
وهنا نلاحظ غياب كلمة فم التى يشير اليها المؤلف بالمقطع فى أو بى الوارد فى الآية الأولى من الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين.(المترجم).

التعريف في اللغة المصرية ثم ظلت كذلك في اللغة القبطية. اذن فقد كان المحط الثالث يسمى هاميروث ؛ وهذا التشابه مع كلمة هاجيروث (العجرود) لابد في رأيي أن يسترعي الانتباه.

عبور البحر الاحمر

تجاه الهاجيروث، على وجه التقريب، تكونت نحو الجنوب الشرقي، كتلة الرمال التى اقتطعت من البحر الأحمر هذا الحوض الواسع الذى نجده اليوم إلى الشمال من هذا البحر. والذى لاتزال تربته، وهى أدنى بكثير من أدنى حركات المد والجزر، تحمل كل الخواص الدالة على أثر المياه، ومع ذلك فقد كان من الضرورى، قبل أن تكون هذه الكتلة من الرمال قد ارتفعت لحد يكفى لصنع بحيرة من الطرف الشمالى للخليج العربى، أن يتبقى فى هذا المكان مستنقع ظل الخوض فيه مستحيلا، لوقت طويل، حتى عند حدوث نوبات المد الواطئة.

ومن المحتمل أن يكون الاسرائيليون قد اتبعوا موسى عند هذه المخاضة ؛ فهذا الرجل الشهير، الذى تربى على حكمة وعلوم المصريين، والذى لاذ لوقت طويل بشواطىء البحر الاحمر، كان

يعرف امكانية عبورها سيرا على الأقدام من عند هذه النقطة، في حين كان على عبيد بؤساء، غارقين في أحط درجات الجهالة، والذين لم يخرجوا قط من مصر من قبل، أن يعتقدوا، عند ظهور الجيش المعادى من جانب، ووجود البحر من الجانب الآخر، أن خط الرجعة قد قطع عليهم[٣٦]؛ ويورد فلافيوس جوزيف[٣٧] أن الاسرائيليين كانوا محصورين بين الجيش المصرى والبحر وصخور وعرة ؛ ويتفق هذا الوصف تماما مع الوضع الذى أنسبه للجيش الاسرائيلى، إذ إن سلسلة الجبال التى يلمحها المرء إلى الجنوب تتوغل فيما يبدو حتى الشط.

ولقد كان مع فرعون، فى جيشه، دون ريب، أشخاص كثيرون، لم يكونوا ليجهلوا النقاط التى يمكن اجتياز البحر عندها، ومع ذلك، فاذا اكتفى فرعون بأنه قد أصبح على مرأى من الاسرائيليين، فقد كان من الطبيعى للغاية أن ينشد الراحة للفرق العسكرية التى أرهقتها مسيرة لابد أنها كانت بالغة التعجل دون أن يخشى، مجرد خشية، أن يتمكن هؤلاء البؤساء الشاردون ومعهم

(٣٦) كذلك توجد فى البحر الأحمر، تجاه السويس، مخاضة يتردد عليها البدو، وتجهلها غالبية سكان مصر.

(37) Antiquités Judaïques, liv. II Ch, 6.

زوجاتهم وأطفالهم، من الافلات منه؛ أما موسى، فقد أفاد من الضباب أو دوامات الرمال التى يتحدث عنها الكتاب المقدس ويسميها "غبارا" ليخفى مسيرته عن العدو، كما أمكنه أن يستغل نوبة المد الوطيئة لكى يخوض البحر على رأس العبرانيين. وقد اعترض بعض بأن عدد هؤلاء كان كبيرا لحد لايمكنهم من اجتياز البحر فى تلك المسافة من الزمن، التى تفصل بين حركة مد وأخرى؛ ومع ذلك فلابد أن نتوخى الحذر عند وقوفنا على روايات المؤرخين، عندما يحتمل أن تكون هذه قد جاءت متأثرة بفعل الكبرياءالقومى(٣٨).

وفى هذا الصدد، على سبيل المثال، فان مانعرفه عن طبيعة الصحراء والقبائل التى تسكنها، يحملنا على الاعتقاد بأن بعض اليهود، من أولئك المتحمسين للغاية لمجد أمتهم، سوف يستبيحون لأنفسهم – فى الأصحاح الأول من سفر العدد – واحدة من هذه التحريفات التى يعترف الكرادلة والمجامع المقدسة بامكانية

---

(٣٨) فلنستبدل، على سبيل المثال بكلمة ملك كلمة شيخ، عندئذ سوف يمكننا أن نتصور كيف يستطيع يشوع أن يهزم فى معركة واحدة ٣١ ملكا (انظرسفريشوع).

وجودها فى الأسفار الخمسة[٣٩] ؛ وتكفى ظروف نشر هذه الأسفار نفسها لتوليد الشكوك، ان لم يكن بخصوص الوقائع الأساسية، فعلى الأقل بخصوص التفاصيل، لاسيما عندما يتعلق الأمر – كما هو الحال هنا – بدقة العدد؛ فمن المعروف فى واقع الأمر أن كتاب الشريعة قد نشر لأول مرة فى أرض مواب "فى عبر الأردن، فى أرض مواب ابتدأ موسى يشرح هذه الشريعة"[٤٠] ، أى بعد أربعين عاما من خروج العبرانيين من أرض مصر[٤١] ، ولم يكن قد ظل

---

(٣٩) عندما كان مصلحو القرن السادس عشر يسعون لاحراج بلاط روما بأن يجابهوه على الدوام بالكتب المقدسة، كان رجال الكنيسة، من حائزى ثقة البابا والمقربين إليه يقولون بصوت عال: ان هذه النصوص تستمد قداستها من تبنى الكنيسة لها؛ ولم يقتصر التشيع لهذه الفكرة على رجال خاملى الذكر، بل ان قاصدا رسوليا فى مجمع الثلاثين، هو الكاردينال وارمى Warmie لم يخش من مغبة أن يعلن فى مؤلف مطبوع انه لو لم تكن الكنيسة قد احتضنت الكتاب المقدس وبشرت به كمشروع كنسى لما استحق هذا الكتاب الكثير من الاعتبار أو طبقا لنص كلماته : "ذلك أنه من المؤكد أن مؤلفنا (الكتب المقدسة) هذا كان سيغدو عملا ضئيل الأهمية، لولا أن سلطة الكنيسة قد علمتنا أن هذه الكتب المقدسة كتب أصيلة". وفى النهاية، فان أكثر آباء الكنيسة علما من أمثال اوريجين وسان أوغسطين لا يأخذون بالمعنى الحرفى للتوراة على اطلاقه، ويرون فيما ورد فيها رموزا واستعارات.

(٤٠) سفر التثنية، الاصحاح الأول، الآية ٥ ؛ والاصحاح ٢٩ الآية الأولى، الاصحاح ٣١، الآيتان ٩ , ٢٤.

(٤١) سفر التثنية، الاصحاح الأول، الآية ٣.

على قيد الحياة، عندئذ، في كل اسرائيل، ممن شهدوا الوقائع التي وردت بالأسفار (الخمسة) سوى اثنين هما : يشوع بن نون وكالب بن يفنة[٤٢] ، اللذان كانا متعاونين على الدوام مع موسى[٤٣] الذي باركهما وجعل منهما وارثي سلطته. لقد كان الأبناء الذين لم يكونوا بعد يعرفون كيف يميزون أن يتبصروا الخير والشر، حين كان آباؤهم يعسكرون في صحراء فاران، كانوا – وحدهم – الذين نالوا من الرب الاذن بدخول الأرض الموعودة[٤٤] ، فهل كان بمقدور هؤلاء، وقد أصبحوا رجالا، أن يعرفوا حقيقة أعداد قبائلهم عندما غادرت مصر، وأن ينحو جانبا شهادة رجل كان هو نبيهم، وفي الوقت نفسه مشرعهم وحاكمهم المطلق المرهوب (؟) أولسنا نعرف بأية سهولة يتبنى الرجل المتمدين، كما يفعل الرجل المتوحش، أكثر المبالغات بعدا عن العقل إذا كان الأمر يتعلق بقوة أمته وعدد من هزمتهم من الأعداء ؟ وأخيرا، فان شريعة موسى في أورشليم كما في السامرة قد هجرت في غالبية الأوقات من أجل عبادة آلهة مزيفة، ولقد ضاعت الكتب المقدسة الأولى ثم عثر عليها من جديد،

---

(٤٢) سفر التثنية، الاصحاح الأول، الآيات ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨.
(٤٣) سفر العدد، الاصحاح ١٤، الآية ٦.
(٤٤) سفر التثنية، الاصحاح الأول، الآية ٣٩.

واستوجب الأمر مرات عديدة تجديد الشعب اليهودى عهده مع الرب. لذلك فلا ينبغي أن يخالجنا الشك في أن بعض تغييرات طفيفة قد حدثت للأسفار، وأن بعض الأخطاء في الأرقام على وجه الخصوص تتسرب إليها حين يكون للكبرياء القومي بعض المنفعة من وراء الترويج لها(٤٥).

وبمجرد أن علم الفرعون ان العبرانيين قد إجتازوا البحر، أخذ في ملاحقتهم، واقتفت قواته، مدفوعة بالحماسة التي تؤججها

---

(٤٥) حين تعبر الأعداد عن نفسها بالأرقام فمن الممكن أن تقترف أكبر الأخطاء من مجرد جرة قلم، وخصوصا إذا كان لهذه الأرقام تشابه كبير فيما بينها ولها في الوقت نفسه قيم شديدة الاختلاف. ويضاف إلى أخطاء النساخ هذه خطأ من نوع آخر؛ واذا شئنا على سبيل المثال أن نبين الى أى حد يمكن أن يؤدى سهو مترجم ما، أو سعيه وراء كل ماهو عجيب أو غير مألوف، إلى تحريف مؤلف ما، فلنفتح التوراة اللاتينية، سفر الخروج، الاصحاح الثاني والثلاثين، وسنجد فيه أن موسى بعد حادثة عبادة العجل الذهبي قد أمر بقتل ٢٣ (ثلاثة وعشرين) ألفا من الاسرائيليين، في حين نجد الأمر في النص العبرى، وفي الترجمة السبعينية يتناول ٣ (ثلاثة) آلاف رجل، وهو تقدير كبير مع ذلك، وهناك خطأ آخر أكبر ، وهوالذى اقترفه المترجم نفسه حين قدر بـ ٥٠٠٧٠ (خمسين ألفا وسبعين) عدد سكان بيشان المضروبين بالموت عند عودة التابوت ، في حين كان عليه أن يقول إن من بين هؤلاء الآلاف الخمسين هلك سبعون، وقد نقلت هذه الأرقام (ثلاثة وعشرين ألفا، وخمسين ألفا وسبعين) إلى ترجمات أخرى نقلت عن التوراة اللاتينية، ولعلها قد تذكر ذات يوم ، دليلا على دقة الاعداد ؛ وهذا مثال يوضح كيف يتخذ الخطأ بتكراره، شكل الحقيقة.

خطواتهم دون أن تلقى بالا لمد البحر الذى لن يدع لها الوقت الكافى لبلوغ الشط المقابل. فأنقذ المد بعضا منهم ، وابتلع آخرين. وعلينا أن نضع فى الاعتبار تلك الرياح القوية التى كانت تهب فى ذلك الوقت(٤٦) ، وبذلك لن تعترينا الدهشة البتة لأن جزءا من المصريين قد ابتلعتهم الأمواج(٤٧).

يبلغ المد عند السويس نحو المترين، وفى أوقات العواصف، حين تهب بشدة رياح الجنوب ترتفع لمدى يبلغ فى بعض الأحيان ستة وعشرين ديسيمترا؛ وهذا أكثر من كاف لكى يغرق المد جيشا كبيرا؛ فاذا كان جيش المصريين لم يهلك قط بأجمعه، وهو ما يوضحه فيما يبدو صمت المؤرخين الدنيويين، فيمكن افتراض أن

---

(٤٦) سفر الخروج، الاصحاح ١٤، الآية ٢١.

(٤٧) فى العام السابع من نشأة الجمهورية الفرنسية، شاهدنا الجنرال بونابرت، وهو عائد من عيون موسى، يريد أن يعبر البحر عند المخاضة الواقعة قريبا من السويس بدلا من تلمس الخطوط الكنتورية لقمة الخليج؛ وهو الأمر الذى يختصر طريقه لمسافة تزيد على الفرسخين؛ حدث هذا فى أول الليل، وكان المد يعلو ، ثم ازدادت سرعة نوبات المد لدرجة لم يعد الانتظار معها ممكنا؛ وتعرض الجنرال ومن معه لأشد الأخطار، فى وقت كان معهم أدلاء من أهل البلاد.

هذا الجيش، وقد أفزعه حجم الخسائر التى لحقت به ، ولأنه قد بدأ يخشى فى ذات الوقت أن يكشف نفسه فى صحراء لايعرفها بالقدر الكافى، لم يحاول قط أن يخوض البحر الأحمر عند نوبة المد المنخفض (الجزر) التالية.

وهكذا أمكن الاسرائيليين أن يترنموا بهذا النشيد :

١- "أرنم للرب فقد تعظم، الفرس وراكبه طرحهما فى البحر؛

٢- "الرب قوتى ونشيدى ، وقد صار خلاصى، هذا الهى فأمجده، اله أبى فأرفعه ؛

٣-"الرب رجل الحرب، الرب اسمه ؛

٤- " مركبات فرعون وجيشه ألقاهما فى البحر، فغرق أفضل جنوده المركبية فى بحر سوف ؛

٥- " تغطيهم اللجج، قد هبطوا فى الأعماق كحجر ؛

٦- " يمينك يارب معتزة بالقدرة، يمينك يا رب تحطم العدو ؛

٧- " وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك، ترسل سخطك فيأكلهم كالقش ؛

٨- " وبريح أنفك تراكمت المياه ، انتصبت المجارى كرابية ، تجمدت اللجج فى قلب البحر ؛

٩- " قال العدو اتبع ادرك أقسم غنيمة، تمتلىء منهم نفسى، أجرد سيفى، تفنيهم يدى ؛

١٠- " أنفخت بريحك فغطاهم البحر، غاصوا كالرصاص فى مياه غامرة ؛

١١- " من مثلك بين الآلهة يارب، من مثلك معتزا فى القداسة، مخوفا بالتسابيح، صانعا عجائب ؛

١٢- " تمد يميتك ؛ فتبتلعهم الأرض ؛

١٣- ترشد برأفتك الشعب الذى فديته. تهديه بقوتك إلى مسكن قدسك ؛

١٤- "يسمع الشعوب فيرتعدون ، تأخذ الرعدة سكان فلسطين ؛

١٥- " حينئذ يندهش أمراء أدوم، أقوياء موآب تأخذهم الرجفة، يذوب جميع سكان كنعان ؛

١٦- " تقع عليهم الهيبة والرعب، بعظمة ذراعك يصمتون كالحجر ، حتى يعبر شعبك يارب ، حتى يعبر الشعب الذى اقتنيته ؛

١٧- " تجىء بهم وتغرسهم فى جبل ميراثك ، المكان الذى صنعته يا رب لسكنك المقدس الذى هيأته يداك يا رب ؛

١٨- الرب يملك إلى الدهر والأبد.

١٩- " فان خيل فرعون دخلت بمركباته وفرسانه إلى البحر، ورد الرب عليهم ماء البحر، أما بنو اسرائيل فمشوا على اليابسة فى وسط البحر"(٤٨).

هكذا كانوا يشكرون السماء على خلاصهم، كانت مريم النبية (أخت هارون) ، وكانت نساء إسرائيل، وقد انقسمن إلى جوقات، يكررن على صوت دفوفهن :

"رنموا للرب فانه قد تعظم، الفرس وراكبه طرحهما فى البحر".

---

(٤٨) سفر الخروج، الاصحاح ١٥، الآيات من ١ الى ١٩.

فلو شاعت بعض العقول المدققة أن تتبين معنى هذا التعبير الذى جاء فى التوراة : "فدخل بنو اسرائيل فى وسط البحر على اليابسة، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم"[٤٩] لجاءها الرد بأن الأمر لايعدو أن يكون أسلوبا مجازيا للتعبير عن أنهم كانوا يعبرون النهر عند مخاضة، ولما لم يكن ينبغى لهم أن يبتعدوا لا ذات اليمين ولا ذات الشمال، فقد كانوا محصورين بفعل المياه فى مساحة بعينها كما لو كانوا بين بحرين. هكذا. ان ترانيم شاعر ما لا يصح أن تفسر بقدر أكبر من الصرامة، كما أن الآية الخامسة من الاصحاح ١٥ والتى أوردناها من قبل، تبين لنا كيف أن المصريين قد سقطوا فى قاع البحر، وليست المياه هى التى عاودت سقوطها فوقهم (أو انطباقها عليهم)[٥٠].

---

(٤٩) سفر الخروج، الاصحاح ١٤، الآية ٢٢.

(٥٠) يترتب على أخذنا تعبيرات الشعراء الأقدمين بمعناها الحرفى أن يختلط بالتاريخ كثير من الخرافات البعيدة عن كل عقل؛ ومع ذلك فليست هذه هى غلطة الشعراء بقدر ما هو خطأ تفكيرنا؛ فعبارات مثل : أمفيون الذى بنى طيبة على أنغام قيثارته، وأريحا التى انهدمت على صوت قرع دفوف بنى اسرائيل، انما هى عبارات من السهل أن نعطيها المعنى الصحيح لها بقدر ما هو سهل أن نشرح هذا البيت من الشعر للشاعر الفرنسى بوالو Boileau : كونديه، هذا الذى يكفى مجرد ذكر اسمه، لاسقاط الحصون.

وقد احتفظ الأثر لدى العربان البدو بذكرى عبور البحر الأحمر، فنجد على شاطئه الشرقى – على بعد ثمانية عشر ألف متر إلى الجنوب من النقطة التى افترض أن الاسرائيليين قد عبروها – عيون مياه تسمى حتى اليوم عيون موسى.

ويعتقد بوكوك Pococke أن العبرانيين قد خاضوا البحر تجاه هذه العيون، ولا يعطى سندا لقولته هذه إلا أن هناك أثرا عن ذلك لايزال موجودا لدى البدو ؛ ومع ذلك فلو كان علينا أن نصدق فى هذا الصدد ما يقول سكان الصحراء ؛ لتحدد المسلك المؤدى إلى موقع العيون الذى نسألهم عنه.

ويرجع الدكتور شو Shaw بنقطة العبور هذه إلى الجنوب بدرجة أبعد، ويجعلها محددة تجاه وادى التيه، وهناك من المؤلفين من يعتقدون أن بحرا واسعا وعميقا هو الذى تتجلى فيه أكثر من غيره قدرة الاله.

وفى مقابل ذلك، فهناك آخرون يظنون أن بنى اسرائيل لم يعبروا البحر من شاطىء لآخر، وانما هم – بعد أن دخلوا سريره (مجراه) فى حالة المد المنخفض، انسحبوا نحو الأرض مع بدء

ارتفاع نوبة المد، مواصلين مسيرتهم فوق منحنى بيضاوى الشكل، من جهة المياه ؛ وهذا رأى لاينهض على أساس، وانما يبرهن فقط كيف يصبح المرء عرضة للخطأ حين يعمل محض خياله، وفى جهل تام بالمواقع.

وهناك آخرون كثيرون كانوا أكثر توفيقا فى شرحهم عبور البحر الأحمر عن طريق المستنقعات ؛ فيتحدث أوزيب[٥١] Eusebe * عن شخص يدعى ارتابانوس Artapanus قد أورد هذا الرأى ناسبا اياه لكهان ممفيس ؛ وعندما خشى المؤرخ يوسيفوس أن تبدو روايته عن عبور البحر الأحمر بعيدة عن التصديق لدرجة كبيرة ، فقد قرر أن الشىء نفسه قد حدث للمقدونيين عندما عبروا بحر بامفيلى Pamphylie ** تحت قيادة الاسكندر، وأضاف "ومع ذلك فاننى أترك لكل امرىء أن يحكم على الأمر كما يشاء". وهذا الاعتراف من جانب أحد

(51) Proepar, evang. lib IV, Cap. 17.

* أما أوزيب فهو مطران قيسارية، وله مؤلف ضخم عن التاريخ الكنسى، (٢٦٥ إلى ٣٤٠م). (المترجم).

** احدى مقاطعات آسيا الصغرى قديما وهى اليوم مقاطعة أضاليا، وهو هنا يشير إلى خليج يحمل نفس الاسم. (المترجم).

الأحبار وواحد من أكثر أعضاء الاكليروس اليهودى علما، انما هو اعتراف ثمين للغاية لأنه يبين لنا ما كان عليه عندئذ رأى هذه الهيئة الدينية؛ ولذلك فان لوما شديدا قد وجه إلى يوسيفوس بسبب صراحته هذه، من جانب اناس ظنوا، برغم كونهم مسيحيين، أن عليهم أن يبدوا أكثر منه فى يهوديته، وهو ما يستحيل على المرء أن يأخذ به عند قراءته لهذا المؤرخ ، ومن بين المحدثين، نجد نيبور ولوكليرك Le Clerc يحددان السويس موقعا لهذا الحدث بسبب المخاضة التى تقع أمام هذه المدينة، ولم يك بمقدور هذين الرجلين أن يعتقدا، مثلى، أن العبور قد تم لأبعد من ذلك، قليلا، نحو الشمال، وعند نقطة لا يشغلها البحر اليوم، لأن الحدود القديمة للبحر الأحمر لم تكن معروفة لهما، ولأنه لم تكن قد حدثت بعد أية عمليات تفدين فى هذا الجزء من البرزخ؛ وفوق ذلك فهذان الرأيان لا يختلفان فيما بينهما إلا بقدر طفيف للغاية حتى ليمكن للمرء أن يتبنى، دون تفرقة، هذا الرأى أو ذلك، فلقد كان موقع حصن هاجيروت أو الحيروث الذى ضرب أمامه الاسرائيليون خيامهم، بالاضافة إلى أن البحر فى الفترة المتأخرة كان فى الأرجح أكثر عمقا تجاه السويس مما هو عليه اليوم - كان هذا

كله هو الذى قد حسم اختيارى[٥٢].

وهكذا رأينا، ما هو، فى نظرى، التفسير الأكثر طبيعية لعملية عبور البحر الأحمر، فأما أولئك الذين يضعون الحدث فى صف الخرافات فسوف يتفقون معنا، على أقل تقدير، على احتمال حدوث الأمر على هذا النحو، وأما أولئك الذين يعتقدون بصحة وقوعه فلا تثريب عليهم، دون ريب، إن لم يجدوا من الضرورى أن ينقلب نظام الكون كى نتعرف على قدرة الله فى تخليص العبرانيين، وفى إلحاق الخسارة بالمصريين.

المياه المرة تصبح مياها عذبة

" ثم ارتحل موسى باسرائيل من بحر سوف وخرجوا إلى برية شور، فساروا ثلاثة أيام فى البرية ولم يجدوا ماء، فجاءوا إلى مارة، ولم يقدروا أن يشربوا ماء من مارة لأنه مر، لذلك دعى

---

(٥٢) لابد أن البحر قد كان فى ذلك الوقت، أمام السويس، أكثر عمقا مما هو عليه الآن، مادامت كتلة الرمال التى تحول دون امتداده نحو الشمال بحوالى خمسين ألف متر لم تكن بعد عالية بالقدر الذى يكفى لابقائه داخل حدوده الحالية. انظر دراستى عن الحدود القديمة للبحر الأحمر، الدولة الحديثة، المجلد الأول، ص ١٨٧ . (المجلد الثالث من الترجمة العربية).

اسمها مارة، فتذمر الشعب على موسى قائلين ماذا نشرب، فصرخ إلى الرب فأراه الرب شجرة فطرحها فى الماء فصار الماء عذبا"(٥٣).

لو أن موسى قد كان يعلم خاصية هذا الشجر أثناء هروبه الأول إلى الصحراء لظل هذا السر محفوظا لديه (أو معروفا منه)، ولوجدناه عند البدو الذين لهم بلا جدال مصلحة كبيرة فى جعل الماء صالحا فى صحراء تنقصها المياه الصالحة بدرجة كبيرة؛ اذن فعلينا فى هذا الصدد أن ننقل ما قاله المؤرخ يوسف* وإليكم نص ما قاله حول هذه القضية(٥٤): وبعد أن مشى الاسرائيليون طويلا، وصلوا عند حلول المساء إلى مكان يسمى مارا، وسمى كذلك بسبب مرارة مياهه، وحيث كانوا منهكين للغاية فقد وقع اختيارهم على التوقف هناك فى الوقت الذى كانت تنقصهم فيه المؤن، ذلك لأنهم وجدوا هناك بئرا جعلتهم يأملون، برغم أنها لم تكن لتستطيع أن تفى بحاجة مثل هذه الألوف العديدة، فى بعض

---

(٥٣) سفر الخروج، الاصحاح ١٥ ، الآيات ٢٢ إلى ٢٥.

(54) Antiquités Judaiques, liv. III, Chap. 1

* يوسف أو جوزيف أو يوسيفوس، وهى طرق ثلاث لكتابة اسم واحد يشير الى المؤرخ نفسه. (المترجم).

الانفراج فى احتياجاتهم، كما أن هذه البئر قد واستهم، لاسيما وقد قيل لهم أنه لا توجد آبار مطلقا على طول طريقهم. لكن هذه المياه جاءت مُرة حتى أنه لا البشر ولا الخيول ولا الحيوانات الأخرى أمكنها أن تشرب منها. يالها من مفارقة تدعو للأسى، قد جعلت الشعب كله فى حالة من اليأس ووضعت موسى أمام صعوبة أليمة وعجيبة، فالأعداء الذين عليه أن يهزمهم هذه المرة ليسوا من أولئك الذين يمكن دفعهم بفعل بذل سخى ؛ انهم الجوع والعطش اللذان قد جعلا ، وحدهما، هذه الألوف كبيرة العدد من الرجال والنساء والأطفال يشرفون على الهلاك ؛ وفى الوقت نفسه لم يكن موسى ليعرف نصيحة ما يأخذ بها ، واستشعر هو آلام الآخرين جميعا باعتبارها آلامه الخاصة اذ كان الجميع يلتجئون إليه، فالأمهات يستعطفنه أن يكون شفوقا بأطفالهن، والأزواج يلتمسون منه أن يحنوا على زوجاتهم ، وكل امرىء يتضرع إليه كى يبحث عن بعض علاج لهذا الألم العظيم. وبينما هو فى مثل هذه الحاجة الماسة اتجه إلى الله يطلب عفوه ورحمته وأن يحيل بقدرته وفضله هذه المياه المرة إلى مياه حلوة، فأنبأه الله أنه قد منحه هذا الفضل، عندئذ أخذ موسى قطعة من الخشب، وشقها إلى إثنتين،

وبعد أن ألقى بها فى البئر قال للشعب : إن الرب قد استجاب لدعواته، وأنه سينزع عن هذه المياه كل ما فيها من مرارة أو طعم غير مستساغ ، شريطة أن ينفذوا ما يأمرهم به. ثم طلب اليهم ما ينبغى أن يعملوه ، فأمر أشدهم قوة وأمتنهم بنية بأن يسحبوا جزءا كبيرا من ماء البئر مؤكدا لهم أن الماء الذى سيتبقى سيكون صالحا للشرب. فأطاعوه ، فجنوا بعد ذلك ثمرة الوعد الذى أعطاه لهم" - عن ترجمة المسيو أرنو دانديي Arnaud d`Andilly.

هذا اذن هو تفسير المعجزة ؛ فمن المعروف أنه بافراغ إحدى الآبار، تصبح المياه التى تتبقى عادة أفضل بكثير؛ وتتطابق هذه الملاحظة مع قوانين الطبيعة، وفضلا عن ذلك فقد واتتنا الفرصة أن نكررها مرات عدة فى مصر؛ ففى المناطق الصحراوية التى أقمنا فيها بعض التحصينات ، أصبحت المياه المائلة للملوحة، والنتنة فى معظم الأحيان، أفضل على الدوام بعد مرور بعض الوقت على اغترافها.

عن السحاب وعمود النار
وعن بعض الظواهر الأخرى المثيرة للإنتباه

هناك معجزة أخرى أخذت تتبدى للعبرانيين منذ خروجهم من مصر، وظلوا يحظون برؤيتها بعد عبورهم البحر الأحمر؛ لقد بدا الرب لهم نهارا فى صورة سحاب وليلا فى شكل عمود نار؛ وعلى هذا النحو سار فى مقدمتهم ليرشدهم إلى طريقهم .. ثم يجلس فوق مظلة حين يعسكرون. أليس ثمة احتمال فى وجود بعض أخطاء، أو سوء فهم، من جانب الشراح المتبحرين فى التوراة ؟ وهل يمكن أن يستدعى موسى مثل هذه الشواهد عند مسيرة العبرانيين، ليقدمها كمعجزة ؟ الأمر المؤكد هنا هو أن القوافل تستخدم فى بعض الأحيان، أثناء سيرها الليلى، شعلات ضخمة يحملها الأدلاء يسبقون بها الموكب ، واليكم حول هذا الموضوع، نص ننقله عن العدد ٢٤ من بريد مصر Courrier de l Égypte وهى الصحيفة التى كانت تطبع فى القاهرة (أثناء الحملة الفرنسية) :

" فى العاشر من نيفوز، رحلنا من السويس، واتجه الجزء الأكبر من القافلة نحو العجرود، ومضى القائد العام وفى صحبته

الجنرالات برتييه Berthier ، ودمارتان Dommartin ، وكافاريللى Cafarelli ، والمواطنان مونج Monge وبرتولليه Berthollet - إلى الطرف الشمالى الأقصى للخليج ، كى يتبينوا على الطبيعة ما ان كانت توجد أى آثار لتلك الترعة التى ترسمها الخرائط باعتبارها كانت تقيم اتصالا بين النيل والبحر الأحمر، وفى الواقع، فقد تم العثور على مثل هذه الآثار، وكان أول من تبينها هو الجنرال بونابرت نفسه. ثم سارت الفرقة لمسافة أربعة فراسخ فى مجرى الترعة نفسها؛ وفى الوقت نفسه، فمع السير فى هذا الاتجاه، ابتعدت هذه الفرقة كثيرا عن العجرود، حيث كان عليها أن تعود لتلحق ببقية القافلة حيث الماء والمؤن والأطعمة. كان الليل يقترب، وكان موقع العجرود بالنسبة لها غير معروف ؛ وتعرض من فى الفرقة لخطر أن يضلوا الطريق.

وصحب كل من الجنرالين بونابرت وبرتييه رجلا فوق حصانه، وسارا فى المقدمة، واتجها بأقصى سرعتيهما نحو النقطة التى كانت تغيب عندها الشمس، وساقهم هذا الاتجاه لحسن الحظ إلى العجرود، وأمر القائد العام باطلاق قذيفة مدفع، وباشعال النار فوق أبراج القصر، وبأن توضع فوق بعض النقاط العالية من

الطريق الذى انتهى هو من اجتيازه مشاعل (أو فوانيس) من تلك التى تتزود بها القوافل على الدوام لتكون علامات على الطريق أثناء الليل ؛ وهذه الشعلات بالغة البساطة، فالشعلة منها اسطوانية الشكل، توضع بها نار قوية ولامعة، اذ توقد بها قطع بالغة الجفاف من خشب السنط، وهذه المشاعل مثبتة فى الجزء العلوى منها بعصا يصل طولها خمسة إلى ستة أقدام، وتغرس فى الأرض حين يراد التوقف ؛ فاذا شاءت القافلة أن تسير خلال الليل، يمشى فى مقدمتها رجال عديدون يحملون شعلات مماثلة، ويحرصون على بقائها عالية ليلمح كل مسافر نارها.

وعند المساء، التأم شمل الجميع[٥٥].

سيقال، بلا جدال، أن ليست هذه قط شعلات تماثل تلك التى تكون السحاب وعمود النار اللذين تشير إليهما التوراة، ذلك أننا نقرأ فى التوراة، فى الآية ٢١ من الاصحاح الثالث عشر من سفر الخروج أن الرب كان يسير أمام العبرانيين. ومع ذلك فهل

(55) Cowrrier de l'Egypte, No. 24, le 27 nivòse an 7. de la Republique Française.

يتحتم علينا أن نأخذ هذا التعبير بمعناه الحرفى فى حين يعرف المرء أن شعبا شديد التدين يجعل كل شىء من صنع الرب، وأن الاسرائيليين، بشكل خاص كانوا يتقبلون فى الشعر، وفى النثر ذاته، كل المبالغات التى تتجاوز كل حد؟ ولدينا نحن، حيث تضع اللغة الكثير من التحفظ والتعقل أو القيود، ألسنا نجد اناسا يتسمون ملائكة أو كائنات مقدسة أو مخلوقات سماوية ؟ لنضع أنفسنا لحظة فى مكان العبرانيين : أجنبى يسير على رأسنا ليهدينا السبيل فى صحراء مجهولة منا. الشعلة التى يحملها فى الهواء تلقى خلال النهار دخانا، وخلال الليل لهيبا يهتدى على ضوئه رجالنا. الأمر المؤكد أن لن يكون ثمة ما هو أبسط ولا أيسر من أن نقص ذلك بأسلوب يخلو من الشاعرية. ومع ذلك فعلينا ألا نواجه الأمر فى ذاته، ولنتدبر نتائجه، وعندئذ سوف نغير من لغتنا، ولسوف نقول: كيف هبط علينا هذا الرجل فى الوقت نفسه الذى نحتاج اليه فيه أشد الاحتياج ؟ كم نحن محظوظون أن وهبنا اياه ! **انه رجل مبارك ، انه ملاك ، انه اله !**

وحيث يتعاظم كل شىء، بالنسبة نفسها فى لغة الحماسة، تتحول الشعلة إلى عمود من النار، إلى عمود من السحاب، إلى

مجد الرب[٥٦].

ومما يدل على أن موسى لم يكن يريد أن يقدم هذه الواقعة باعتبارها أمرا خارقا للطبيعة أنه يخبرنا بأن حماه، هذا العربى من مديان (مدين)* هو الذى قاد الاسرائيليين ، واليكم ما نقرؤه حول هذا الموضوع فى سفر العدد، الاصحاح العاشر :

آية ٢٩ : "وقال موسى لحوباب بن رعوئيل المديانى، حمى موسى ، اننا راحلون إلى المكان الذى قال الرب أعطيكم اياه، اذهب معنا فنحن نحسن اليك، لأن الرب قد تكلم عن اسرائيل بالاحسان ؛

آية ٣٠ : " فقال له لا أذهب، بل إلى أرضى وإلى عشيرتى أمضى ؛

آية ٣١ : " فقال لا تتركنا لأنه بما انك تعرف منازلنا فى البرية تكون لنا كعيون ؛

آية ٣٢ : " وان ذهبت معنا فبنفس الاحسان الذى يحسن

---

(٥٦) أطلق القديس يوحنا على مطارنة الكنائس الاسيوية السبعة اسم ملائكة هذه الكنائس : «وقال ابن الرب اكتب إلى ملاك كنيسة ايفيزوس».

* وهى احدى المدن الايونية على بحر ايجه. (المترجم).

الرب إلينا نحسن نحن اليك ؛

آية ٣٣ : " فارتحلوا من جبل الرب مسيرة ثلاثة أيام وتابوت عهد الرب راحل أمامهم مسيرة ثلاثة أيام ليلتمس لهم منزلا" .

وبالتأكيد ، فلو أن ملاك الرب كان حقيقة هو الذى يمشى أمام العبرانيين لكان موسى فى غير حاجة إلى حميه ليكون مرشدا لهم ولما كان وعده بالكثير من "الاحسان" - أى الثروات - ليحمله على البقاء بالقرب منه.

أما هذه العبارات : **ان الرب أو ملائكته كانوا يقودون جيش اسرائيل فى شكل دخان أو لهيب** فيقتصر معناها على أن تابوت العهد كان محمولا فى مقدمة المسيرة(٥٧) .

---

(٥٧) التابوت عبارة عن صندوق من خشب السنط تكسوه صفائح من ذهب، ويبلغ طوله ذراعين ونصف الذراع، وعرضه ذراعا واحدا ونصف الذراع وبارتفاع يماثل عرضه؛ وقد حفظت فيه ألواح الشريعة؛ ويسمى غطاء التابوت المائدة، ويعلوه اكليل من الذهب، يشكل جناحاه المبسوطتان ما يشبه مقعدين يفترض أن تجلس عليهما ذات الرب غير المرئية، سفر العدد، الاصحاح السابع، الآية ٨٩. وكان جانبا التابوت؛ من ناحية الطول، مزودين بحلقتين كانت تدخل فيهما العصوان اللتان تستخدمان فى حمله فوق الاكتاف، ويمكننا أن نرى فى أطلس العصور القديمة، اللوحة الثانية، المجلد الأول، الشكل ٤، رسما بارزا فى جزيرة فيلة يماثل التابوت لدرجة كبيرة، وهو ما سبق أن لاحظه من قبل المسيو لانكريه Lancret فى دراسته عن وصف جزيرة فيلة، ص ٢٧.

أما هذه الوسيلة فى ارشاد الفرق أو الجيوش، عن طريق اشارات نارية توضع أثناء نوبات الراحة فوق خيمة القائد، فأمر لا يخص العبرانيين وحدهم. فمن المعروف أنها كانت مستعملة عند الفرس، كما أننا سوف نقرأ هنا باهتمام النص التالى عند كينت – كورس Quinte-Curce* بسبب تشابهه الشديد مع ما جاء بالاصحاحين التاسع والعاشر من سفر العدد. يقول كينت كورس عند حديثه عن الاسكندر: " وعندما كان يريد أن يفض معسكرا ، كانت الطبول تعطى الاشارة، ومع ذلك، فحيث كانت الضجة فى معظم الأحيان تحول دون سماع دقات الطبول، فقد كان الاسكندر يأمر بأن توضع على خيمته عصا يستطيع أن يلمحها الجميع وأن ترفع فوقها شارة الرحيل : **وكانت هذه نارا أثناء الليل ودخانا أثناء النهار**(٥٨)".

ونقرأ فى الاصحاح التاسع من سفر العدد :

آية ١٥: " وفى يوم اقامة المسكن غطت السحابة المسكن

---

* مؤرخ لاتينى عاش فى القرن الميلادى الأول وله مؤلف كبير عن تاريخ الاسكندر. (المترجم).

(58) De Rebus Gestis Alex. Lib, V. Cap. 7.

خيمة الشهادة ، وفى المساء كان على المسكن كمنظر نار إلى الصباح ؛

آية ١٦ : " هكـذا كان دائمـا، السحـابة تغطيه ، ومنظر النـار ليـلا ؛

آية ١٧: " ومتى ارتفعت السحابة عن الخيمة كان بعد ذلك بنو اسرائيل يرتحلون ؛ وفى المكان حيث حلت السحابة هناك كان بنو اسرائيل ينزلون".

وفى الاصحاح العاشر :

آية ١ : " وكلم الرب موسى قائلا ؛

آية ٢ : " اصنع لك بوقين من فضة، مسحولين تعملهما فيكونان لك لمناداة الجماعة ولارتحال المحلات ؛

آية ٣ : " فاذا ضربوا بهما يجتمع اليك كل الجماعة إلى باب خيمة الاجتماع".

ولا يمكن المرء بالتأكيد أن يجد تشابها أكبر بين عادات الأمتين فيما يتصل بمسيرة فرقهما.

معجزات أخرى كثيرة يمكن تفسيرها بشكل طبيعى مماثل لما تم مع المعجزات السابقة. كذلك فان السمان، الذى يكون منهكا بعد رحلة طويلة يتساقط الكثير منه فى الأيدى عند شاطىء البحر، فى الفصول نفسها التى كان العبرانيون يستخدمونه خلالها طعاما لهم. ونقرأ عند ديودور الصقلى أن مصريين منفيين لادانتهم بالسرقة فى عهد اكتيزانيس، فى صحراء برزخ السويس، كانوا يتغذون بالطريقة نفسها، أما المن، فما برح يحصد من شجرات لعلها كانت فى الماضى وفيرة العدد فى المناطق المحيطة بجبل سيناء ، أما النار اليونانية، فهى مثال على أن الشرقيين قد عرفوا، فى فترات سابقة ، كيف يشعلون النار، وكيف يستخدمونها على هذا النحو المخيف.

ومع ذلك فان كل هذه التفسيرات لا تتعارض فى شىء مع الرأى القائل بأن من المستطاع أن يكون الرب قد جاء لمساعدة شعبه؛ فهذا الاتفاق العارض أو الفجائى لأحداث مواتية، والتى ليس بمقدور أحد أن يكررها، يمكن أن ينظر إليه باعتباره (فى حد ذاته) معجزة، وفضلا عن ذلك فلا ينبغى أن نتوقف عند هذا الأمر أكثر من ذلك، ولنصل مباشرة إلى تلك اللحظة التى أقام فيها

الاسرائيليون ، دون جلبة ، فى الصحراء ، بعد أن هزموا العماليق فى رافيديم.

الشريعة تتنزل على جبل سيناء[٥٩]

كانت كل الشعوب القاطنة فى ضواحى جبل سيناء على يقين من أن الرب يقيم هناك ؛ ذلك أنه يكاد ينظر إلى الجبال العالية فى كل مكان، باعتبارها المقر الاعتيادى للآلهة ؛ وهذا أمر طبيعى، فليس هناك واحد منا لم يستشعر عند سفح هذه الكتل الصخرية العظيمة ضعفه، وهو أمر ينتج عنه خشوع وتأمل يهيئان لانبعاث روح الأفكار الدينية، وفضلا عن ذلك فان الجبال تكون مسرحا لعدد كبير من الظواهر المفزعة، التى تبدو كما لو كانت جهازا هائلا فى أيدى آلهة جبارة ؛ ولقد منح الخوف، بأكثر مما فعلته المعرفة، البشر أولى أفكارهم عن الألوهية ، فمن قممها تندفع السيول المدمرة، كما تتكون فى باطنها وعلى ضجيج الانفجارات التى تزلزل وتقلب باطن الأرض، الأحجار الملتهبة ، والمعادن

(٥٩) يسمى العرب هذا الجبل باسم جبل موسى.

المنصهرة التى تبتلع المدن وتدمرها حين تخرج فى شكل شواظى من نار وأنهار من حمم ؛ كذلك، على ذراها، تزمجر الرياح العاتيات، وتتراكم السحب التى تتخذ من الأشكال ما يبعث على الرهبة، وتتفجر الرعود الهائلة وسط البروق التى تبدو وكأنها ستصعق الوديان(٦٠).

على مشهد عاصفة مماثلة، أراد موسى أن يصدم خيال الاسرائيليين حتى ينتهى باقناعهم بصحة تلك العلاقة القائمة بينه وبين الرب. لم تكن سماء مصر قد قدمت لهم من قبل، شيئا شبيها بذلك، فهى تتوهج بالضوء الباهر أثناء النهار، وبأجمل لون لازوردى أثناء الليالى الهادئة، ولا تحجبها قط أية سحب معتمة ؛

(٦٠) عندما قرأت فى المجمع العلمى بالقاهرة، فى السادس عشر من برومير من العام التاسع، مذكرتى هذه عن عبور الاسرائيليين للبحر الأحمر، وعن اقامتهم عند سفح جبل سيناء، أعلنت أن هذا الجبل يمكن أن يكون بركانا خامدا، فالأحجار البركانية الضخام التي كنت رأيتها في صابورات السفن (الصابورة : ثقل يوضع في سفينة لحفظ توازنها) عند مدينة الطور تلك التي كانت تصل إلى السويس والقصير؛ كما أن الوصف الذى يعطيه موسى للحظة تجلي الرب فوق جبل سـيناء قد رجحت عندى الرأى، وبعد وقت من قراءة دراستي توجه اثنان من رفاق رحلتنا هما السـيدان كوتل Coutelle وروزيير Roziére إلى كهف فى جبل سيناء، وتبين لهما أن الجبل جرانيتي وليس به أى أثر لبركان، ومع ذلك فان الأعاصير أو العواصف، تتفق بنفس القدر مع ما يمكن أن تحدثه ثورة بركانية كتلك التى جاءت فى رواية موسى.

وفى الربيع فقط نرى بعضا من سحب بالغة الارتفاع تدفعها بسرعة ريح الشمال، لتمضى سريعا كى تتراكم فوق جبال الحبشة العالية، حيث تتحول إلى أمطار ينشأ بسقوطها عدد لا حصر له من الأخوار التى تصب فى النيل مكونة فيضان هذا النهر. أما الخماسين أو الريح المسممة (ريح السموم)، بدواماتها الترابية الملتهبة وأعمدتها الرملية فتعكر وحدها صفو الجو، ومع ذلك، وبخلاف أنها لاتهب على مصر إلا مرة أو مرتين على مدار العام فانها هناك ضارة أو مؤذية أكثر منها مفزعة، فهى تمارس على الحيوانات والنباتات آثارها الضارة، وتسبب أمراضها، بل قد تقتلها أحيانا، فان ذلك يحدث* فى معظم الأحيان بالطريقة التى تحدث بها آثار السموم، تلك التى تعمل دون جلبة، دون عنف ظاهرى ؛ وبالاضافة إلى ذلك، فبامكاننا، أن نحكم عليها بدواماتها تلك بأنها بنت الأرض أكثر منها وليدة للسماء، لذلك فنحن نعتقد أن قدماء المصريين قد اتخذوا منها رمزا للقدوة السيئة. وعلى هذا يكون من السهل علينا أن نتصور كيف كان العبرانيون مأخوذين بفعل رعب دينى عند أول مرة يرون فيها البروق تشق ظلمات السحب، ويسمعون فيها هزيم الصواعق فوق الجبال العالية،

تتزايد أصداؤه وتمتد لأبعد مدى قعقعاته[61]. وفى الواقع فان السحب تقدم لمن يرصدها أشكال شياطين بالغة الغرابة، كما ان حركتها، وأشكال المسخ التى تقدمها قد أفزعت فى معظم الأحيان وألهبت خيال الضعفاء من الرجال أو جهالهم ، فقد رأى بعض فيها علامة على غضب السماء ورأى آخرون فيها آلهتهم ذاتها أو أرواح أجدادهم الهائمة ، أما الرعد ، فقد جعلت منه كل الشعوب سيد الكون، وها نحن نرى، برغم تقدم العلوم والفنون الذى يهيئه التعلم، أن كثيراً من الناس مابرحوا يخافونه بأكثر مما يخافون الأخطار الوشيكة أو الداهمة، والسبب فى ذلك بالغ البساطة. ان من الممكن لنا أن نصارع ضد هذه الاخطار فى الوقت الذى لانملك فيه وسيلة ما لدرء أخطار الرعد. وزيادة على ذلك، فكل ضجة هائلة تولد الاحساس بوجود قوة عظيمة، كما يجعل منها الخيال صرخة غضب هائلة تصدر عن كائن عظيم وقادر فى حالة غضب وهياج.

لقد ظل موسى لوقت طويل يرعى قطعان حميه فوق جبل سيناء، وهناك كان شاهدا على ظواهر وأشكال سامية شكلتها

---

(٦١) أثناء قرابة نحو أربع سنوات قضيتها فى مصر، لم أسمع سوى مرة واحدة صوت الرعد؛ ومع ذلك فقد كان هذا الصوت ضعيفا حتى أن كثيرا من الأشخاص، ممن كانوا معى، لم يلحظوه قط.

الرعود والعواصف فوق هذا الجبل الشامخ : وبلا ريب فان ذكرى ما كان هذا الرجل الماهر قد استشعره منها هى التى دفعته إلى استغلالها فى تحقيق مآربه.

وننقل هنا نصا حرفيا من جزء من الاصحاح التاسع عشر من سفر الخروج :

أية ١ ، ٢ " فى الشهر الثالث بعد خروج بنى اسرائيل من أرض مصر، فى ذلك اليوم جاءوا إلى برية سيناء ؛ ارتحلوا من رفيديم وجاءوا إلى برية سيناء فنزلوا فى البرية. هناك نزل اسرائيل مقابل الجبل ؛

أية ٣ : " وأما موسى فصعد إلى الله، فناداه الرب من الجبل قائلا : هكذا تقول لبيت يعقوب، وتخبر بنى اسرائيل ؛

أية ٧ : " فجاء موسى ودعا شيوخ الشعب ووضع قدامهم كل هذه الكلمات التى أوصاه بها الرب ؛

الآيات من ٨ إلى ١٢ : " فأجاب جميع الشعب معا وقالوا كل ما تكلم به الرب نفعل، فرد موسى كلام الشعب إلى الرب ؛ فقال الرب لموسى ها أنا آت اليك فى ظلام السحاب لكى يسمع الشعب حينما أتكلم معك فيؤمنوا بك أيضا إلى الأبد، وأخبر موسى الرب

بكلام الشعب فقال الرب لموسى اذهب إلى الشعب وقدسهم اليوم وغدا وليغسلوا ثيابهم، ويكونوا مستعدين لليوم الثالث. لأنه فى اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء؛ وتقيم للشعب حدودا من كل ناحية قائلا احترزوا من أن تصعدوا إلى الجبل أو تمسوا طرفه. كل من يمس الجبل يقتل قتلا".

وفى واقع الأمر، فليس من العسير أن يتنبأ بحدوث الرعد قبل موعده ببضع ساعات[٦٢] ؛ فالبحارة وسكان الجبال العالية يبرهنون لنا كل يوم على صحة ذلك ، اذ تحملهم غريزة البقاء على أن يلاحظوا بعناية كل نذر الظواهر الجوية التى يخشونها. وقد تطلب الأمر من موسى - وقد عمل لمدة طويلة راعيا فوق جبل سيناء - أن يقوم هناك بتأملات وملاحظات مماثلة. أما عن الفترة

---

(٦٢) تتضح نزر الثورات البركانية كذلك، وبطريقة تكاد تكون شبه مؤكدة، عن طريق توهج المستنقعات والأبخرة التى تحمل روائح كبريتية، وكذلك عن طريق الهواء الثقيل والحار، والأصوات تحت الأرضية وجفاف الآبار، ونقص - وفى بعض الأحيان التوقف التام - للدخان الذى يتصاعد عادة من فوهات البراكين القديمة، وكذلك عن طريق الفزع الذى يتملك الحيوانات فتعبر عن قلقها بصرخاتها وسيرها المتخبط والقلق، وتفعل الطيور نفس الشىء فتطير هنا وهناك - هذه كلها علامات على قرب حدوث العواصف أو الاعاصير أو الزوابع، كما أنها فى الوقت نفسه نذر بحدوث هذه الكارثة الرهيبة (ثورة البراكين).

المحددة والتى تبتعد قليلا عن الأيام الثلاثة التى حددها موسى فى الآيات من ١١ إلى ١٥ فان علينا أن نعتقد أن موسى، عند حديثه إلى العبرانيين، كان يعطى لكلماته غموض الوحى القائم بالوساطة بين الناس وبين الرب، والذى يكرر ذلك دون أن يصيبه الفشل، وان كان يدون نبوءاته (الغامضة تلك) – ما ان تمضى الحوادث، بطريقة واضحة محددة(٦٣).

ونواصل مرة أخرى النقل عن الاصحاح التاسع عشر من سفر الخروج :

أية ١٦ : " وحدث فى اليوم الثالث لما كان الصباح أن صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة ؛

أية ١٧ : " وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله، فوقفوا فى أسفل الجبل ؛

---

(٦٣) انظر بالاضافة إلى ذلك ما سبق أن ذكرناه فى الجزء الخاص بعبور البحر الأحمر عن نشر الأسفار.

آية ١٨ : " وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار. وصعد دخانه كدخان الأتون، وارتجف كل الجبل جدا".

الآيتان ٢٠. ٢١ : " ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل، ودعا الله موسى إلى رأس الجبل فصعد موسى؛ فقال الرب لموسى انحدر حذر الشعب لئلا يقتحموا إلى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون".

ألسنا نضع أيدينا الآن على وصف بالغ الدقة للرعد ؟ ألسنا نرى كم كان موسى يخشى أن يأتى أحد ابناء شعبه ليجده وسط السحب التى تغطى قمة الجبل، لكنه لن يجد هناك الرب المقدس الذى اصطنع له ذكاء موسى وحكمته، وقابلية هؤلاء للايمان والتصديق مكانا هناك. **وأما موسى فقد اقترب إلى الضباب حيث كان الله**، هكذا تخبرنا الآية ٢١ من الاصحاح العشرين من سفر الخروج.

ويتعرف المرء كذلك - ولا يزال - فى هذا الاصحاح نفسه على الدوافع التى حدت بموسى أن يقود الاسرائيليين إلى جبل

سيناء، اذ يقول لهم : " انه الله انما جاء لكى يمتحنكم ولكى تكون مخافته أمام وجوهكم حتى لا تخطئوا".

" انتم رأيتم اننى - اى أنا الرب - من السماء قد تكلمت معكم"*.

وبعد ذلك، وبعد أن منع موسى أن يتبعه أحد، ذهب فوق الجبل، وأمضى هناك أربعين يوما ، وخط خلال هذه العزلة لوحى الوصايا وقدمهما إلى الشعب باعتبارهما حسب قوله " المكتوبين باصبع الرب"**.

وبهذه الطريقة نفسها فرض غالبية المشرعين الاحترام الكبير لشرائعهم ، نوما يستلهم حورية الماء والغاب ايجريا، والملك جبريل يملى القرآن على محمد، ومانكو كاباكا يتحدث باسم الشمس، وليكورج، نفسه، حتى ليكورج الحكيم يبحث عن دعم لشرائعه فى وحى معبد دلفى. إن هؤلاء الرجال العظام، الأكبر مهارة والأكثر

* اقتباس من الآيتين ٢٠، ٢٢ من الاصحاح العشرين من سفر الخروج. (المترجم).

** سفر التثنية، الاصحاح التاسع، الآية ١٠. (المترجم).

علما من عامة الناس* يفيدون من ظواهر الطبيعة المعروفة لهم جيدا كي يحيطوا أنفسهم بالمهابة والقداسة. ألسنا نرى

---

* ينظر المؤلف إلى الجميع بلا استثناء باعتباهم مشرعين وبذلك يطبق فكرته على المشرع الحقيقي والمشرع المفترض وجوده وكذلك الأنبياء.

وفكرته هنا تعميمية لأقصى حد، قد تصلح دليلا على حذقه هو ولكنها لاتعد دليلا على صدق ما يذهب اليه. وقد وضح من سياق مقاله قلة معرفته – ويكاد يكون جهله – بالاسلام ونبيه العظيم. أما الذين يشير إليهم هنا فهم : نوما Numa : ثانى ملوك روما كما تحكى الأساطير (٧١٤ – ٦٧١ ق.م) وكانت السلطة فى ذلك الوقت فى يد الرؤساء أو السيناتوريين، أما الملك فكان يقوم بدور الكاهن الأكبر. ولكى يلزم شعبه وقومه الهمجى فى ذلك الوقت بالأخلاق القويمة وجد أن من الضرورى له أن يبدو فى صورة من يستلهم كلماته من غير حكمة البشر فادعى أنه يلتقى فى الليل بايجريا، الحورية المقدسة التى تلهمه الرشد والنصيحة، وأفلح بذلك فى توحيد دين قبائل روما وقويت وحدة الدولة وزاد استقرارها.

مانكو كاباكا Manco Capac : مؤسس امبراطورية بيرو وأول ملوك الانكا؛ عاش فى القرن العاشر الميلادى.

ليكورج Lycurgue يقول عنه هيرودت أنه ابن عم الملك كاريلوس ملك اسبرطة، تلقى من الوحى فى دلفى بعض مراسيم يراها البعض قوانين ليكورج نفسها، ويراها آخرون تصديقا ربانيا على قوانين ليكورج. وقد وجد باعتباره مشرعا أن أفضل طريقة لتغيير عادات الناس القائمة ولادخال عادات جديدة أن يقدم قوانينه باعتبارها أوامر من عند السماء. وفى حين يجزم بعض المؤرخين بأنه واضع قوانين اسبرطة يرى كثيرون أنه شخصية خيالية، ولعل هذه الشرائع لم تكن من وضع رجل واحد بعينه، ولكنها طائفة من العادات تحولت إلى قوانين وسميت بأسم الشخص الذى قام بجمعها وتدوينها. (المترجم).

كريستوف كولمبوس، فى زمن أكثر حداثة، وحين كاد يهلك جوعا، ينذر البسطاء، سكان جمايكا، بأنهم، ان لم يجلبوا الأطعمة إلى معسكر الأسبان، فلسوف تعاقبهم يد الله، ثم حدث كسوف الشمس الذى كان يتوقعه فخر القوم سجدا من الرعب، وأطاعوه.

حقا ! إن طفولة الشعوب تمتلئ على الدوام بالمعجزات(٦٤).

موت موسى

بعد أن سار الاسرائيليون لبعض الوقت على غير هدى، وعلى طريقة العربان، فى المناطق المحيطة بجبل سيناء، حاولوا التوغل فى أراضى سوريا إلى الغرب من البحر الميت.

كان موسى قد استنهض عزيمتهم مخبرا إياهم أن الرب قد

---

(٦٤) ليس هناك ماهو أسهل من خداع الطبقة الدنيا من الشعب عن طريق معجزات مزعومة حتى عند الشعوب المتحضرة. ألم يهرع القوم فى ايطاليا، فى أيامنا هذه، ليحيطوا بصورة العذراء المقدسة التى كانوا "يرونها" وهى تحرك عينيها، ولهذا السبب لم يكن القساوسة يكلفون أنفسهم عناء تحريك أى جهاز لاتمام "المعجزة"، كانوا يكتفون بالقول :هل ترون ؟ ويجيب الجميع. نعم. نحن نرى.

وكم يكون الخيال قادرا على الخلق !

أعطى لنسل ابراهيم أرض كنعان. ومع ذلك فقد رفضوا عند وصولهم إلى حدود هذه الدولة أن يمضوا لأبعد من ذلك، فقد أفزعتهم تقارير جواسيسهم؛ ثم عادوا فطلبوا أن يدخلوا المعركة بعد أن استنفرتهم ملامات موسى، وحدس هذا الرجل الذى كان شاهدا على ما أبدوه من فزع منذ وقت قصير أنهم سيهزمون لو تجاسروا على الهجوم برغم منعه اياهم من ذلك؛ ولم يستمعوا اليه، وحاقت بهم الهزيمة التامة[٦٥]. وأدرك موسى من هزيمتهم تلك، ومن عصيانهم الذى تفجر قبل ذلك بقليل، أن الاسرائيليين، لم يصبحوا بعد، مضرسين بالقتال ولا منظمين بالقدر الكافى حتى يمكنهم أن يستقروا بالقوة القاهرة فى أرض السوريين؛ فانتظر فى الصحراء ثمانية وثلاثين عاما حتى مات غالبية العبرانيين الذين ولدوا بمصر. ولقد سمعهم مرات عديدة يأسفون على قيودهم، وشعر كم هو عسير أن يولد روحا قومية لدى رجال ربما كانوا ينتمون لأجناس متفرقة، وولدوا فوق ذلك في أغلال العبودية. واستغل من جانبه كل هذا الوقت فى تطويعهم لشرائع تتناسب مع أوضاعهم وما يهدف هو إليه. ولقد نجح فى ذلك. وحين يتخيل المرء صعوبة هذه المحاولة

---

(٦٥) سفر العدد، الاصحاح الرابع عشر.

من جانب موسى، فانه يجد ما يغريه على أن يضع هذا المشرع في مقدمة كل المشرعين الآخرين، ليس فقط لأنه انتزع عبيدا من سادتهم وانما - كذلك - لأنه جعل منهم أمة شهيرة غير قابلة للفناء، واذا كانت فتوحاته وفتوحات من خلفوه لا يمكنها من ناحية الاتساع والأهمية أن تقارن بفتوحات محمد وخلفائه، في ظروف تكاد تكون متشابهة، فقد تم الأمر على هذا النحو لأن موسى كان يجابه في زمنه أمما قوية وشعوبا مضرسة بالقتال تشغل أرض سوريا وفارس ومصر وبلاد العرب، أما عند ظهور محمد، فقد كانت امبراطورية الرومان العملاقة وكذلك امبراطورية الفرس قد بليتا من القدم بعد أن اقتسمتا العالم، وكانت الشعوب التى اخضعها هؤلاء والتى سئمت أغلالها تظن أنها تحطم أغلالها بانتقالها من سيطرة سيد قديم إلى أيدى سادة جدد* ؛ كذلك فان موسى كي يخلق من عبيد دولة متماسكة قد اضطر أن يوحى إليهم بالهلع من الأجانب ، وهو شعور ظلوا يحملونه بين جوانحهم حتى

---

* لا يمكن أى منصف أن يقبل هذه الأفكار على اطلاقها، بالاضافة إلى أن الكثير مما جاء في كلامه مردود عليه ولا يمكن تفسيره إلا بالتحامل أو تجاهل معطيات التاريخ، وهو أمر يؤسف له من جانب رجل يتسم بروح متحررة، وباطلاع واسع. (المترجم).

أنهم يفضلون أن يستأصلوا شأفة عدوهم عن أن يهزموه، بل انهم يزدرون المعتنقين الجدد لدينهم حتى فى ذراريهم، فلا يعطون إلا للجيل العاشر من هؤلاء الحق فى دخول جماعة الرب. فى حين أن محمدا، بعد أن أخضع للاسلام كل العرب - وكان لدى هؤلاء شعور قومى بالغ الوضوح منذ زمان بعيد، قد أمكنه أن يستخدم القوة والاقناع لحشد أنصار جدد مانحا اياهم كل الحقوق المقررة للمؤمنين القدامى، وبهذه الطريقة ضاعف قواته الظافرة بجنود من الأمم التى فتحها*.

وقد عكف موسى، كما سبق لنا القول، لأكثر من ثمانية وثلاثين عاما منذ انتصار الكنعانيين(٦٦) ، على تطويع العبرانيين لشرائعه ، وفى النهاية حاول من جديد أن يستقر فى سوريا، وزحف نحو الشرق من البحر الميت، متخذا هذه المرة، طريقا مختلفا عن الطريق الذى كان قد اتبعه عند حملته الأولى، متجنبا فى كل الأحوال أن يمر بأرض ملك أدوم الذى كان يخشى

---

* وهكذا تتحول الميزات والفضائل إلى عيوب ومآخذ عند من يريدون التحامل على الاسلام بأية وسيلة. (المترجم).

(٦٦) سفر التثنية، الاصحاح الأول، الآية ٤٦، والاصحاح الثانى، الآية ١٤.

بأسـه[٦٧] . وضمن موسى لنفسه، من هذه الناحية دعم أو على الأقل حيدة كثير من العشائر حين أذاع أن العبرانيين يشتركون معهم فى أصل واحد، وحين وعد باحترام أملاكهم وبأن يدفع حتى ثمن الماء الذى سيشربه هو وقومه عند عبورهم بلادهم[٦٨] .

وعندما شنت عليه معارك أثناء مسيرته، فقد انتزع انتصارات عديدة لا بأس بها، واستولى على منطقة خصيبة تقع إلى الشمال من نهر الأردن؛ وهناك، حيث شعر بقواه تخور، شاء أن يجعل من موته أمرا مفيدا فى تحقيق مآربه، فأعلن للشعب أن الرب قد رفض أن يدخله الأرض الموعودة لأنه قد شك مرة واحدة ، واحدة فقط، فى قدرته* وأعلن باسم الرب الخالد أن يشوع بن نون قد صار خليفة له ؛ وبعد أن صعد موسى جبال عباريم ونبو أشار

---

(٦٧) سفر العدد، الاصحاح العشرون.
(٦٨) سفر التثنية، الاصحاح الثانى.
* تقرأ فى التوراة :"فقال الرب لموسى وهارون، من أجل انكما لم تؤمنا بى حتى تقدسانى أمام أعين بنى اسرائيل، لذلك لاتدخلان هذه الجماعة إلى الأرض التى أعطيتهم اياها " سفر العدد، الاصحاح ٢٠، الآية ١٢.
وكذلك :"لأنكما خنتمانى فى وسط بنى اسرائيل عند ماء مريبة قادش فى برية صين إذ لم تقدسانى فى وسط بنى اسرائيل فانك تنظر الأرض من قبالتها ولكنك لا تدخل الى هناك ، إلى الأرض التى أعطيتها لبنى اسرائيل". سفر التثنية، الاصحاح ٣٢، الآية ٥١ ، ٥٢. (المترجم).

بيده للعبرانيين إلى الأرض التى سيكافئهم بها الرب جزاء فضائلهم ولاسيما عقيدتهم الدينية.

وهأنذا استحضر صورة هذا الرجل المسن، الجدير بالقداسة، فى ملامح موسى الذى رسمه ميكل أنجلو فى كنيسة القديس بطرس، فى روما ؛ جبهته التى جعدتها السنون لا تنم إلا عن الهدوء ، أما عيناه فتحتفظان ببريقهما مع القدر الأكبر من الرقة والحنو ؛ ولقد احترمت يد الزمن عظمة تقاطيعه ، أما أسنانه البيضاء كالعاج(٦٩) فتظلها لحية كثيفة تتدلى فوق صدره، هذا هو يمشى ببطء ولكن فى ثقة، أما شحوب لونه ونظراته الشاخصة إلى السماء فتنبىء وحدها أنه تارك الأرض كى يذهب إلى مقام أكثر قداسة ، يحيط به المقاتلون والنساء والأطفال، بل والعبيد، كلهم قلقون، لكنه بصوته الملهم يتنبأ لهم بأقدارهم التى يحملها لهم المستقبل، ويباركهم؛ ويجثو الشعب على ركبتيه، وحين يعلن لهم عن موته الوشيك يتفجر النحيب وتنساب الدموع، فى كل مكان، ويقول

---

(٦٩) " وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته" سفر التثنية. الاصحاح الرابع والثلاثون، الآية ٧.

لهم كلمة الوداع الأخيرة ثم يبتعد ؛ يندفع الناس ليتبعوه، لكنه بحركة واحدة من يده الخائره يلزمهم أماكنهم ؛ من يتجاسر على عصيان هذا الرجل الذى اصطفته السماء فى اللحظة نفسها التى يذهب فيها كى يتحد بالذات الخالدة ؟ ولم يره أحد بعد ذلك يعاود الظهور، أما يوشع المخلص الوحيد لما كان يهدف اليه، وكذلك بلا ريب لقراره الأخير، فيقود الاسرائيليين من جديد فى عربات موآب حيث يظلون يبكونه ثلاثين يوما ؛ مشرعا ونبيا وأبا.

ومع ذلك فلن أمضى لأبعد من ذلك فى بحثى، فالجيل الذى عبر الأردن كان غريبا عن مصر، وقد لا يتصل تاريخه بقدر كاف بخطة هذا المؤلف* لكننى أختتم بهذه الفكرة : إن كل ما انتهينا إلى استخلاصه من الأسفار الخمسة إنما هو احتمال وقريب كذلك من الصحة، ويتطابق أو يتفق بشكل تام مع روايات المؤرخين الدنيويين لدرجة يستحيل معها أن تكون هذه الأحداث أسطورة ، كما شاء بعض أن يزعم ذلك بفعل خيال عزرا أو حلقيا** اللذين

---

*وصف مصر

** Esdras او Helcias ونلمس هنا خلطا فى الأسماء وقع فيه المؤلف، فنحن فى الواقع بصدد رجل واحد هو عزرا بن سرايا بن عزريا =

كانا يعملان خيالهما لمقاصد سياسية ودينية. وفضلا عن ذلك فلعل هذين الجدين اليهوديين قد اصطنعا - مع ذلك - للعبرانيين أجدادا أثرياء وأقوياء، ولعلهما قد قصرا حديثهما على الانتصارات وليس عن الهزائم ؛ فحين يخترع انسان ما تاريخ أمـــة ، فان الكبرياء القومى هنا هو الذى يملى عليه كل جملة يقولها.

= بن حلقيا، أحد مصلحى وباعثى القومية اليهودية عند نهاية الأسر البابلى، وهو كما تصفه التوراة "كاتب ماهر فى شريعة موسى"، عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد وهو حفيد الكاهن الأكبر الذى كان نبوخذ نصر قد أمر بإعدامه بعد استيلائه على أورشليم، وبعد عودة اليهود من الأسر، بعد أن سمح لهم بذلك الملك كورش أصبح حاكما للجودية، وظل صاحب نفوذ قوى على قومه، وقد أمرهم بالتخلص من زوجاتهم غير اليهوديات باعتبارهن "من شعوب الرجاسات" وأن عليهم ألايتزوجوا مطلقا بأجنبية كى لايزيدوا "على اثم اسرائيل". ويرى بعض المؤرخين أنه هو واضع "أخبار الأيام الأول" و"أخبار الأيام الثانى" المتممين لسفر الملوك الذى قام هو كذلك بوضعه، كما يقال أنه قد غير الكتابة العبرية القديمة واستبدل بها الحروف العبرية الحديثة وهى نفسها الحروف الكلدانية. (المترجم).

الفهرس

رقم الإيداع ١٨٧٢ / ١٩٩١

I.S.B.N. 97700 - 1141 - X.

الكتاب القادم . .

مدينة الاسكندرية

